د. نبيـل فـاروق

رجل المستحيل وأنـــا

فريق متميزون
E-BOOK

دار دَوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رجل المستحيل.. وأنا

د. نبيل فاروق

عن الكتاب..

كتاب رجل المستحيل وأنا من الكتابات الفكرية والحرة للكاتب نبيل فاروق على مدار سنواتٍ طويلة، ارتبط جيلٌ كامل من قراء العالم العربي بشخصية "أدهم صبري"

هذا الكتاب:

ـ سوف يكشف لنا التاريخ السري لرجل المستحيل.
ـ سيجيب على سؤال "من أين نشأت أشهر شخصية جاسوسية في الأدب العربي؟"
ـ سنعرف الشخصية الحقيقية التي ألهمت د. نبيل فاروق بأدهم صبري. ـ سيحكي لنا كواليس أول لقاء مع رجل المستحيل الحقيقي في منزله؟
ـ ما الصعوبات التي واجهت رجل المستحيل للخروج إلى النور؟ وكيف تغلّب د. نبيل فاروق عليها؟ بل كيف نشر أولى رواياته في عالم الأدب؟
هُنا ذكريات نادرة وحكايات ثريّة تُنشر لأوّل مرّة.
يحكي لنا د. نبيل فاروق عن الكواليس الحقيقية لذلك العالم الرائع الخلاب..

العالم الحقيقي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجل المستحيل.. وأنا.. (كلمات الغلاف الخلفي)

الرجل كان صورة لأفضل ما يمكن أن تتخيله في رجل أمن، مع مهاراته وخبراته، وهدوئه، وتهذيبه الفائق للحد، وتواضعه الجم، الذي جعلني أعتبر مجرد وجوده هو إشارة أمل، ولمحة لا يمكن تجاهلها..

ومع شدة انبهاري به، أطلقت عليه في أعماقي اسم "رجل المستحيل"..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شدَّ على يدي في قوة، وهو يتطلع إلى عيني مباشرة، وقال بجدية بالغة: "شد حيلك.. الشدائد تصنع الرجال.." ويومها لم يتعرفه أحد..

جاء، وجلس مع أسرتي وأصدقائي وأقاربي، وتحدث لنصف الساعة مع والدي، وعندما انصرف، جاء الكل يسألني: "مين ده؟!.."..

وأخبرتهم أنه صديق قديم، ربطتني به الظروف، ولم أخبرهم بالطبع عن مهنته، ولكن والدي - رحمه الله - قال في رصانة: "راجل محترم، وله هيبته.."..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال بمنتهى الحزم: "اتصل فورا.. الناس دي محترمة جدا.."..

وأجريت الاتصال الهاتفي، مع السيد "ل"، الذي تحدث إلى بأسلوب غاية في التهذيب والذوق، وحدد لي موعدا للقاء السيد "ع"..

وفي ليلة اللقاء، كان المفترض أن نواصل العمل، في رواية "سمير الإسكندراني"، الذي استشرته بشأن الأمر، فتحمس بدوره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أتطلع إليه في انبهار شديد، عندما أدركت، أو استعدت هذا، مما جعله يبتسم، ويسالني عما أمر به، وهنا وجدت نفسي أهتف بكل الحماس: "عايز اكتب عملية من عملياتك الحقيقية"..

بدت عليه الدهشة لحظة، ثم قال في هدوء: "لو وافقوا، ماعنديش مانع.."

وبقوله هذا، فتح أمامي بابا لم أفكر في عبوره من قبل قط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

تنويهات د. نبيل فاروق عن رجل المستحيل عبر صفحات الكتاب..

- ولد بين عاميّ ١٩٥٠ و١٩٥١ م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إسمه يبدأ فعليًا بحرفيّ الألف والصاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- والده كان يعمل في السلك الديبلوماسي، قبل وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- توفى والده أثناء عمله في دولة أجنبية، بين عاميّ ١٩٧٠ و١٩٧١ م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- نشأ حتى عام ١٩٨٠ في حي مصر الجديدة بالقاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يقيم منذ عام ١٩٨١ م في حي المهندسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- له شقيق واحد، يعمل بمهنة مرموقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ظهر في مشهد واحد، في أحد أفلام نهاية السبعينات، كجزء من عمله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ظهر إسمه مره واحدة في جريدة الأهرام، في نعي والده فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلتحق بالعمل الديبلوماسي لعامين قبل اعتزاله مباشرة، في نهاية القرن العشرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مقدمة..

للوهلة الأولى، عندما طلب منِّي الزميل إبراهيم عيسى أن أروي لقرَّاء الدستور علاقتي برجل المستحيل، انتابتني حالة من الحرج الشديد، والتردُّد الأشد، والحيرة - ولأوَّل مرة - في اتخاذ القرار..

فمنذ غادرت عالم الطب إلى عالم الأدب، اعتدت أن أكتب عن أمور شتى ليس بينها كتاباتي الشخصية؛ فمن وجهة نظري أنه لا يصح أن يكتب الكاتب عن نفسه، أو عن مؤلفاته وفلسفته..

ولكن ما طلبَه مني إبراهيم لم يكن حديثًا عن المؤلفات، وإنما عن الشخصية نفسها.. عن شخصية رجل المستحيل، التي أتشرف بابتكارها وكتابتها، منذ ما يزيد عن عشرين عامًا..

والواقع أن الشخصية قد وُلِدَت في أعماقي قبل هذا بكثير..

كثير جدًّا..

فمنذ حداثتي وصباي، كنت مبهورًا كبَنِي جيلي بأبطال شتى من مجتمعات مختلفة وثقافات متباينة، مثل أرسين لوبين، وشيرلوك هولمز، وردكامبول، وجيمس بوند وغيرهم..

كنا مبهورين بأفكار رواياتهم، والإثارة الشديدة في كل صفحة منها، على الرغم من أنها تتعارض تمامًا مع كل القيم والأخلاقيات والمبادئ التي تربينا عليها ونشأنا في كنفها..

ومع سنوات الجامعة الأولى، في طب طنطا، بدأت الفكرة تلح على ذهني في تواصُل غير مسبوق..

لماذا لا تكون لدينا شخصية مماثلة تحمل كل مميزات تلك الشخصيات الروائية الشهيرة، وكل ما تبهرنا به من تشويق وإثارة مع قيم مصرية وعربية أصيلة تناسب عقيدتنا ومجتمعنا، وبدأت أنقل الفكرة إلى أصدقائي المقربين فسخر منها معظمهم، في حين قال أحدهم في لا مبالاة: «طب ما تكتبها انت..»..

والعجيب أن عبارته لم تدفعني أبدًا لكتابتها، وإنما دفعتني للتفكير في الأمر أكثر وأكثر، ورسم الخطوط العريضة للشخصية وأنا أفكر فيمن يمكن أن يصنع ما أحلم به..

والواقع أنه لم يخطر ببالي لحظة واحدة أيامها أن يدور الزمن دورته لتصبح الشخصية التي أحلم بها من ابتكاري أنا؛ خاصة وأنني قد قُمت بمحاولة متواضعة لذلك في عامي الثالث بكلية الطب، وسافرت إلى القاهرة وكانت هذه مغامرة كبرى بالنسبة لطنطاوي مثلي، وزُرت مؤسسة صحفية كبرى وعرضتُ على أحد المسؤولين فيها فكرتي، ولكنه واجهني بأن الفكرة مرفوضة تمامًا من أساسها؛ لأن الدراسات النفسية أكدت أن البطولة الفردية غير مقبولة، وذات تأثير ضار على الصغار والشباب..

وغادرت تلك المؤسسة عائدًا إلى طنطا وأنا أتساءل في حيرة: لماذا إذًا يسمحون لعشرات المترجمَات وأفلام السينما العالمية بتقديم بطولات فردية مثيرة للغاية مع مبادئ هدامة إلى أقصى حدٍّ؟ وهل البطولة الفردية مقبولة لو أنها في سبيل الملكة، ومرفوضة إذا ما كانت في سبيل مصر؟!..

ومع حالة الإحباط التي أصابتني، أسقطت الموضوع كله من تفكيري تمامًا، واعتبرتها فكرة فاشلة لن تتحقق أبدًا..

وفي عامي الأخير في الكلية، وبمصادفة عجيبة، التقيت برجل أمن رفيع المستوى، بهرني بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، وأطلق في أعمق أعمالي ذلك الزلزال العنيف مرة أخرى..

فالرجل كان صورة لأفضل ما يمكن أن تتخيله في رجل أمن، مع مهاراته وخبراته وهدوئه وتهذيبه الفائق للحد، وتواضعه الجم الذي جعلني أعتبر مجرد وجوده هو إشارة أمل ولمحة لا يمكن تجاهلها..

ومع شدة انبهاري به، أطلقت عليه في أعماقي اسم (رجل المستحيل)..

وتخرجت من كلية الطب وتباعدت علاقتي برجل الأمن حتى اقتصرت على اتصالات بعيدة وخطابات قليلة متفرقة كنت أرسلها إليه من حضن (أبو دياب شرق) في قلب صعيد قنا..

ولأن المناخ هناك هادئ، والصداقات لا تشبع نهمي للثقافة والحديث، بدأت أقرأ في غزارة، وأكتب في روية لتتحوَّل الشخصية التي لم تفارق عقلي أبدًا إلى خطوط عريضة على الورق..

خطوط استقيت معظمها من ذلك الصديق الذي كان وما زال يبهرني والذي أطلقت عليه ذلك اللقب في أعماقي..

وعندما انتهت فترة تكليفي في محافظة قنا، كنت قد وضعت الخطوط الأساسية الكاملة لشخصية رجل المستحيل، ولكنِّي لم أكن قد كتبت قصة واحدة له بعد..

وتسلمت عملي في قرية تابعة لمدينتي الأم طنطا..

وهنا بدأت مشكلة عجيبة للغاية ومصرية قلبًا وقالبًا..

فالقرار الذي جئت به من قنا إلى الغربية كان يؤكد انتقالي من الأولى إلى الثانية، ولكن محافظة الغربية لم تكن لديها درجات مالية خالية؛ فاعتبرت أنني مُنتدَب إليها ولستُ منقولًا..

ووِفقًا للقواعد الروتينية التي وضعها تحتمس الثالث على الأرجح، رفضت قنا صرف راتبي باعتباري منقولًا، ورفضت الغربية صرفَهُ باعتباري منتدبًا وحِرتُ أنا بين المحافظتين دون أن أصرف راتبي لعدة أشهر..

كانت أسرتي يومئذٍ ميسورة الحال ووالدي واحد من كبار المحاسبين في مدينتي طنطا، إلا أن كرامتي لم تسمح لي أبدًا بإخباره أنني مفلس ولا أجد «شروى نقير» وإن كنت أجهل ما هو النقير هذا؛ لذا فقد ملت على صديقي الدكتور محمد حجازي واستدنت منه جنيهات خمس كان عليَّ أن أقتصد في إنفاقها إلى أقصى حدٍّ حتى يأتي الفرح..

ولم أدرِ لحظتها أن الفرج قريب جدًّا، وأنه سيكون بداية الطريق إلى الحلم القديم..

حلم رجل المستحيل و...

للذكريات بقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الأول

ميلاد حلم بعيد

لمرةٍ واحدةٍ في حياتي كلها ابتعت مجلة تحمل اسم (عالم الكتب) في صيف ١٩٨٤م أثناء ركوبي قطارًا من قطارات الدرجة الثالثة في طريقي إلى قرية (سجين الكوم) التي افتتحت فيها مع صديقي الدكتور محمد حجازي عيادة ريفية صغيرة، بأمل الحصول على أي دخلٍ يكفي لحياة كريمة، بعد أن توقف راتبي تمامًا؛ بسبب الخلاف بين قنا والغربية..

وفي القطار، قرأت المجلة التي حوت مقالًا عن حقوق الملكية الفكرية، وقرأت على غلافها الأخير إعلانًا من المؤسسة العربية الحديثة، يطلب كاتبًا لروايات من الخيال العلمي للشباب..

وما إن وصلت إلى العيادة التي لم تستقبل في حياتها كلها سوى عدد من المرضى لا يتجاوز أصابع اليدين، حتى أخرجت مجموعة من الأوراق ورحت أكتب رواية كنت قد وضعت أسسها الأولى في جبال قنا..

واستغرقتني رواية الخيال العلمي وخاصة مع غياب المرضى، حتى أنهيتها تقريبًا مع موعد القطار التالي الذي يعود إلى طنطا، ثم ألقيتها في درج المكتب ونسيتها تمامًا مع انشغالي بمحاولة تدبير أموري المالية؛ لتوفير كل قرشٍ ممكنٍ من الجنيهات الخمس التي استدنتها من صديقي حجازي..

كانت المسابقة تنتهي في ٣١ يوليو عام ١٩٨٤م، ولقد ظلَّتْ الرواية ملقاة في درج المكتب حتى فوجئت بالزميل محمد حجازي يعود بها إلى منزلي ليلة الثامن والعشرين ليسألني لماذا كتبتها؟!

ورويت له القصة كلها، ثم أخبرته في نهايتها أن المسابقة وهمية حتمًا، وأن الفائز الحقيقي قد تم اختياره بالفعل كما يحدث في كل المسابقات المماثلة، ولكنه أبدى إعجابه بالقصة وطلب مني تقديمها في المسابقة، إلا أنني -ومع حالة اليأس التي كنت أمرُّ بها- رفضت الفكرة تمامًا وبمنتهى الإصرار..

وتطوُّعًا، قام محمد حجازي بكتابة القصة على الآلة الكاتبة، وصنع منها نسختين عاد بهما إلى مكتبي يوم ٣٠ يوليو؛ ليحاول إقناعي مرة أخرى بتقديمها للمسابقة وأواصل أنا إصراري على رفض هذا تمامًا..

ولحُسن تدابير القدر زارني في الوقت نفسه زميلٌ آخر وهو أشرف صبحي، وسمع القصة من حجازي مع شكواه من إصراري على رفض تقديمها؛ فقرَّر أن يحملها بنفسه إلى المؤسسة؛ نظرًا لسفره إلى القاهرة في اليوم التالي..

وسافر أشرف بالفعل مع القصة، وأنهى أعماله كلها ثم حملها إلى الفجالة حيث العنوان المذكور في الإعلان، في السابعة من مساء ٣١ يوليو ١٩٨٤م..

وهناك فوجئ بهم أشرف يغلقون المكتبة، وأصابه الذعر من أن يعود مُعلِنًا فشله في تقديم القصة في موعدها؛ فتشبث بالباب وأصرَّ على تسليمها على الرغم من اعتراض العاملين على هذا..

ولأنه عنيد للغاية، اضطر العاملون إلى الاتصال بصاحب ومدير المؤسسة الأستاذ حمدي مصطفى؛ لعرض الأمر عليه، فطلب منهم استلام القصة حتى يتركهم أشرف في حالهم على الأقل..

وأخبرني أشرف أنه قد سلَّم القصة، ولكنني أيضًا لم أبالِ ولم أضع أيَّ أملٍ على الأمر، وحاولت تجاهله في أعماقي تمامًا..

ولكن فجأة وفي السابع من أغسطس، فوجئت بخطاب يصلني من المؤسسة للحضور شخصيًّا للتعاقد بشأن القصة..

والواقع أنها كانت مفاجأة كبرى بالنسبة لي رجَّتني من الأعماق، وجعلتني أفقد توازني لحظات قبل أن أقرِّر السفر إلى القاهرة في أول قطار في اليوم التالي؛ ليتحوَّل الحُلم إلى حقيقة، وأتعاقد على أول قصة في حياتي كلها..

وفي السادسة والنصف من صباح الثامن من أغسطس، استقللت القطار بتذكرة عودة يومية في الدرجة الثالثة كلفتني خمسة وأربعين قرشًا كاملة، وأنا أرتدي حلة صينية أنيقة، وأحمل حقيبة صغيرة فارغة (وما تسألنيش ليه)، وفي جيبي مائة وتسعون قرشًا فقط..

وفي الثامنة بالضبط وصلت إلى القاهرة وارتجف جسدي مع مرأى الزحام والغبار اللذين لم أعتدهما في بلدتي طنطا، وبدوت كالتائه وأنا أسأل المارة وسائقي الأتوبيسات عن المنطقة الصناعية في العباسية، حتى أخبرني سائق سيارة تاكسي أنه يعرف موضعها، وطلب مني جنيهًا كاملًا ثمنًا لتوصيلي إليها..

ودفعت الجنيه صاغرًا، وحملني السائق إلى ميدان العباسية، ثم أنزلني هناك ليخبرني بكل برودٍ أنه يجهل أين هي تلك المنطقة الصناعية، ثم انصرف وتركني كالتائه في الصحراء، وفي جيبي تسعون قرشًا فحسب..

ورُحت أسأل هنا وهناك، وكل شخص يرسلني عدة كيلو مترات تحت شمس أغسطس، حتى وجدت نفسي في التاسعة إلا خمس دقائق أمام المطبعة العربية الحديثة التي تسلمت منها خطاب التعاقد..

وبجسد يغمره العرق، وقدمين متهالكتين من قَطْع كيلو مترين كاملين في العراء تحت شمس أغسطس، دخلت المطبعة لأوَّل مرة، وسألت عادل عبد الحميد عن الأستاذ حمدي الذي يحمل الخطاب توقيعه، وكلي أمل في أن أحصل على مكافأة المسابقة لتغطية التسعين قرشًا التي تبقت في رصيدي كله..

وبمنتهى البساطة أخبرني عادل أن الأستاذ حمدي غير موجود..

وسقط قلبي في جيبي مع القروش التسعين و...

للذكريات بقية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن صدمتي الحقيقية هي أن الأستاذ (حمدي) غير موجود بالمطبعة في تلك الساعة المبكرة، ولا أنني لم أُحسِن اختيار وقت الوصول، ولكن الصدمة الفعلية هي أنني لا أحمل في جيبي سوى تسعين قرشًا، ويفصلني عن المنطقة المأهولة كيلو مترات من العذاب والنار تحت شمس أغسطس؛ لذا فما إن أخبرني الأستاذ عادل عبد الحميد أن الأستاذ غير موجود حتى قلت فيما بدا أنه حزم، في حين أنه كان في حقيقته تشبثًا ضائعًا بآخر فرصة لالتقاط أنفاسي:

«حأستناه»...

ثلاث ساعات كاملة قضيتها بعدها في مكتب صغير مجاور لمكتب الأستاذ، أطالع مجموعة من كتب الدكتور (مصطفى محمود) ويوالي عادل الاهتمام بي عبر سيل من أقداح الشاي في اهتمام وكرم طبيعيين ما زلت أحمل جميلهما حتى هذه اللحظة، وأنا أعد الدقائق والثواني في انتظار وصول الناشر الذي بدا لي أشبه بالوصول إلى القمر لما يعنيه من توقيع عقد ونقود وانتقال من إفلاس التسعين قرشًا إلى ثراء الأفلام العربي القديمة الذي يأتي بإنهاء مشهد وبدء آخر..

وفي الثانية عشرة تقريبًا، وصل الأستاذ حمدي وتنفست الصعداء، وذهبت لمقابلته فاستقبلني بمنتهى الحرارة والذوق، وبادرني مؤكدًا أن ما كتبته في روايتي هو بالضبط ما كان يطمح إليه عندما نشر إعلانه، ثم جلسنا نتحدث عن سلسلة خيال علمي لم تكن قد حملت أيامها اسماً واضحًا بعد..

وأعترف هنا أنني لم أتابع نصف الحوار؛ إذ كان ذهني منشغلًا بالمكافأة التي سأحصل عليها بفوزي في المسابقة، حتى وجدت نفسي أقول بأسلوب مصري أصيل «لنحررة» الأمور: «طيب.. أستأذن أنا بقى..»..

ولكن الأستاذ حمدي طالبني بالجلوس لفترة أخرى، وسألني السؤال الذي كنت أخشاه: «حاجز في قطر كام؟!..»..

ولأنني أحمل تذكرة درجة ثالثة وعودة يومية أيضًا، فقد شعرت بالخجل وأوهمته أنني أحمل تذكرة محترمة (مكيفة) في ديزل الثانية؛ مما جعله يطلب مني الانتظار ويتطوَّع بإرسال (ويليام) لتوصيلي إلى المحطة في الوقت المناسب.. وهنا جلست ووجدت أنها صفقة رابحة في كل الأحوال؛ فحتى لو لم تكن هناك مكافأة فالعودة بسيارة المؤسسة ستوفر التسعين قرشًا على الأقل.. وتواصل الحديث لنصف ساعة أخرى قبل أن أدرك أن كل ما نقوله لا صلة له من قريب أو بعيد بالنقود والمصاري، أو حتى العملات المعدنية الصغيرة، مما جعلني أقبل الجزء الأصغر من الصفقة، وأنهض محاولًا دفع الأمور إلى النقطة التي أنتظرها وأنا أستأذن للانصراف؛ بحجة الموعد الوهمي للقطار؛ متصوِّرًا أن هذه المبادرة ستنقلنا حتمًا إلى الحديث عن المكافأة، ولكن الأستاذ صافحني بكل بساطة وهو يقول مبتسمًا: «طيب.. مع السلامة»..

وخرجت من مكتبه وأنا أدرك لأوَّل مرة ثقل أذيال الخيبة التي كنت أجرُّها خلفي في تلك اللحظات وأنا أغادر المطبعة بنفس القروش التسعين التي دخلتها بها، وإن حافظت على ما تبقى من كرامتي وأنا أجلس في سيارة ويليام الذي تشاغل ببعض الأمور تاركًا إياي أحاول هضم مرارة الفشل..

ثم فجأة رأيت الأستاذ (حمدي) يأتي مسرعًا من الداخل وهو يعتذر لي بشدة لأن الحديث سرقنا فلم نوقِّع عقدًا، ولم يدفع لي عربونًا، ثم سأل ويليام في اهتمام عمَّا إذا كان يحمل نقودًا..

ولأنني لم أكن أعرف أيامها مَن هو ويليام بالضبط، فقد تصوَّرته مجرد سائق وتساءلت مستنكرًا عما إذا كان ذلك العربون هو جنيهات خمس مقابل مواصلاتي حتى يأخذه من سائقه!!..

ولكنَّ ويليام عاد إليَّ حاملًا مظروفًا منتفخًا والأستاذ (حمدي) يقول في بساطة مدهشة: «ده عربون مؤقت، والمرة الجاية تمضي العقد ووصل بالعربون إن شاء الله..»..

وتحسَّست المظروف بكل لهفة الدنيا وويليام ينطلق بالسيارة، وشعرت برزمة الأوراق المالية داخله فاطمأن قلبي، وأدركت أنني قد تجاوزت مرحلة الإفلاس حتى لو كان ما يحويه مجرد جنيهات (فرط)..

استغرق الوصول من العباسية إلى المحطة اثنتي عشرة دقيقة (قارن بين تلك الفترة والآن) بدت لي أشبه بدهرٍ كاملٍ وأنا أتحسَّس المظروف كل ثانية،

وفضولي يكاد يلتهمني لمعرفة ما يحويه، حتى إن أول ما فعلته عندما أنزلني ويليام عند المحطة هو أن فتحت المظروف وألقيت نظرة ملهوفة على محتوياته وخفق قلبي بمنتهى العنف عندما رأيت اللون الأخضر لورقة من فئة العشرين في مقدمة الأوراق..

عندئذ فقط صرخت في أعمق أعماقي: «ودعتي الفقر يا مرجانة!» وانتابتني رغبةٌ عارمةٌ في الانتقام من أيام الفقر والإفلاس السابقة التي لم يعلم بها سواي وسوى صديقي محمد حجازي..

وألقيت تذكرة الدرجة الثالثة في أول سلة مهملات وأنا أتجه مرفوع الرأس نحو شبابيك حجز الدرجة الأولى مباشرة..

كان هناك قطار ينطلق إلى (طنطا) بعد عشر دقائق فحسب، إلا أنه لم تكن به مقاعد خالية إلا في عربات الدرجة الثانية فقط، لذا فقد أقدمت على خطوة لا يمكن أن يتخيلها أحد..

خطوة عجيبة ومضحكة..

للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

النبوءة.. حلم رجل المستحيل

سافرت لأسلم القصة في القاهرة ونسيتها في طنطا.

—

قرأ صديقي رجل الأمن قصتي الأولى، وقال إنها لا تنتمي إلى عالم المخابرات.

—

شقيقتي كوت البنطلون بشرط أن أذكر هذا إذا ما حظيتُ بالشهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المؤكَّد أنني أفهم تمامًا شعور أي شخص تهبط عليه الثروة فجأة بعد طول عناء وإفلاس؛ فهناك في محطة مصر، وعلى الرغم من وجود مقاعد خالية عديدة في الدرجة الثانية من الديزل الذي سينطلق إلى طنطا بعد عشر دقائق فحسب، أصررت على أن تكون تذكرة عودتي بالدرجة الأولى، حتى ولو انتظرت القطار التالي بعد ساعتين كاملتين..

ولأنني لم أكن أجرؤ على المرور أمام كافيتيريا المحطة عند وصولي إلى القاهرة، فقد أفرغت عقدتي النفسية في دخولها مرفوع الرأس، بل وتماديت إلى حدّ طلب وجبة غداءٍ أيضًا (شوف الافترا)..

وفي كافيتيريا المحطة رحت أراجع كل ما حدثَ منذ الصباح، وأتعجب من تصاريف القدر وحكمة الله سبحانه وتعالى التي نقلتني من واقع مُرهِق كطبيب ضائع بين محافظتين، إلى حُلم الكتابة كمحترف في ساعاتٍ قليلة..

والعجيب أنني كنت على يقين عجيب طيلة عمري من أنني سأصبح كاتبًا وليس طبيبًا، حتى إنني كنت أجلس في الكلية مع خطيبتي الدكتورة (ميرفت) التي أصبحت زوجتي فيما بعد، عندما وجدت نفسي أقول لها بلا مبرِّر: «على فكرة أنا مش حأشتغل دكتور.. أنا حأبقى كاتب..»...

يومها اندهشت (ميرفت) وتساءلت عن سِر قولي هذا، ولم تكن تعلم حتى أنني أهوى الكتابة أو أنه لي محاولات فيها، فأخبرتها وأنا أكثر حيرة منها، أنني أجهل تمامًا لماذا قلت هذا!!..

ثم مرَّ الزمن وتحققت النبوءة..

كل هذا استعدته في كافيتيريا المحطة وداخل عربة الدرجة الأولى بالقطار الذي ركبته بعد ساعتين كاملتين، والذي طلبت فيه وجبة غداء أخرى وكأنما أحاول أن أثبت لنفسي أن أيام الفقر قد ولَّت، وأنني أصبحت قادرًا على هذا..

وفي القطار رحتُ أستعيد حُلمي القديم.. حُلم (رجل المستحيل)..

صحيحٌ أن المؤسسة تطلب قصصًا للخيال العلمي، ولكن ماذا لو عرضت عليها فكرة حُلمي القديم؟!.. تُرى هل سيواجهني الناشر بنفس العبارات التي طالما سمعتها وسئمتها عن البطولة الفردية ونفسية الشباب والرفض والزجر والتعقيد، أم أنه سيتقبل الفكرة أو يكتفي برفضها فحسب؟!

وقبل حتى أن أصل إلى طنطا كنت قد اتخذت قراري..

سأُقدِم على التجربة أيًّا كانت النتائج، فقد أوجد الله العلي القدير السبيل، ولا يمكن أن أضيع فرصة كهذه وإلا ندمت عليها حتى آخر العمر..

ومع وصولي إلى طنطا، انتبهت -ولأوَّل مرة- إلى أنه من المحتمل أن أكون أنا مَن يبتكر تلك الشخصية التي ظللت أحلُم بتواجدها طيلة عمري..

ولا يمكنكم أن تتصوَّروا كمّ الرهبة والشعور بالمسؤولية الذي ملأ كل ذَرَّة من كياني يومها، والذي قاومته بوسيلة مصرية صميمة؛ إذ توجهت من محطة القطار مباشرة إلى «هانو» في ميدان الساعة؛ لأشتري سجادة كانت تحلم بها (ميرفت) وأحملها في سيارة تاكسي إلى منزلها، إعلانًا بأن الأزمة قد انتهت، وأن مرحلة جديدة قد بدأت..

وسبَّب شرائي لهذه السجادة بالذات هو أنه في فترة الإفلاس المدقع التي سبقَتْ هذا، كنت وخطيبتي نكتفي بالتنزه في الطرقات دون أن نحاول الجلوس في أي مكان نظرًا لضيق ذات اليد، وبينما نفعل ذلك توقفت هي مبهورة أمام فاترينة «هانو» وأبدت إعجابها الشديد بتلك السجادة ولكنني طلبت منها نسيان الأمر تمامًا وحذفه حتى من أحلامها؛ لاستحالة حصولنا عليها في مثل ما كنت أمرُّ به من ظروف؛ لذا كان تصرفي منطقيًّا، وكانت فرحتها ودهشتها كبيرة عندما أتيت لها بالسجادة بعد يومين فحسب من حديثنا..

أما بالنسبة للشخصية الجديدة، فقد قضيت يومين كاملين في التفكير في أمرها وإعادة دراستها وتقييمها ووضع الخطوط العريضة لها قبل أن أجري اتصالًا بصديقي رجل الأمن لأطرح عليه الفكرة..

كنت أتمنى من أعمق أعماق قلبي أن تعجبه الفكرة، وأن يشجعني على تنفيذها، ولكنه استقبل مكالمتي برصانته وهدوئه المعهودين، واستمع إليَّ في اهتمام، ولم أكن أخبره أن الفِكرة مستقاة من شخصيته حتى فوجئت به

يرفضها على الفور ويؤكَد لي أن حياته عادية جدًّا لم يفعل خلالها سوى ما يمليه عليه ضميره وما يحتاج إليه وطنه وما يستلزم للحفاظ على أمنه وسلامته، وأن هذا لا يستحق التسجيل أو التدوين..

وزاد أسلوبه هذا من إصراري على كتابة الشخصية وإن كنت قد أنهيت الاتصال وأنا أؤكِّد له أنني سأعيد التفكير في الأمر..

ولعشر ساعات متواصلة وحتى صلاة الفجر، رحت أبحث عن اسم جذاب للشخصية الجديدة يحمل الحروف الأولى من اسمه وسماتٍ تتشابه إلى حدٍّ ما مع سماته..

أما اسم السلسلة نفسها فلم أبذل فيه جهدًا كبيرًا؛ لأنه كان مستقرًا بالفعل في تلافيف عقلي منذ التقيت به..

ومع أذان الفجر، كنت أخطُّ أمامي ذلك الاسم الذي تحمله الشخصية حتى لحظة كتابة هذه السطور..

(أدهم صبري)..

ولأنني مبهورٌ تمامًا بصديقي وأستاذي، ولأن الدنيا كانت كلها تتابع أيامها مسلسل «دموع في عيون وقحة» لأستاذ وعبقري أدب الجاسوسية «صالح مرسي»، كان من الطبيعي أن ينتمي بطلي إلى العالم الذي عشقته حتى النخاع..

عالم المخابرات..

ومع مَشرِق الشمس كانت الشخصية قد وُلِدَت بالفعل، وبقي أن ألتقط قلمي وأكتب أوَّل قصصها..

وكانت البداية..

الحقيقية.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

على الرغم من أنني وضعت كل التفاصيل الخاصة بالشخصية إلا أن كتابة أول قصة لرجل المستحيل بدت لي عسيرة وشاقة للغاية، فالأسس التي وضعتها كانت تقتضي أن تكون الشخصية متدينة ملتزمة تتناسب تمامًا مع القِيم التي تربيت عليها وأؤمن بها جيدًا، وكان من الضروري أن أجد صيغة مركَّبة تجمع بين الإثارة والتشويق والمغامرة.. والالتزام أيضًا..

والأهم ألَّا تتشابه القصص مع أية نوعية مماثلة من النوعيات التي رفضتها دومًا، والتي تمنيت ابتكار شخصية (أدهم صبري) لمناهضتها..

ولما كان موعدي التالي مع الأستاذ حمدي بعد أسبوع واحد، فقد قررت عدم التعجل والاستمرار في كتابة سلسلة الخيال العلمي التي لم تكن قد حملت اسمًا واضحًا بعد حتى يمن على الله سبحانه وتعالى بفكرة القصة الأولى لسلسلة (رجل المستحيل) والتي بدت بالنسبة لي أشبه بعملية ولادة متعسرة (دكتور بقى!)..

وعندما اقترب الموعد كنت قد أنجزت قصة الخيال العلمي الثانية بالفعل، وعلى الرغم من هذا فقد كنت أشعر بتوتر شديد؛ لأنني سألتقي مع الأستاذ حمدي، ربما لأن اللقاء هذه المرة سيكون مختلفًا بعد أن اتضحت الصورة وثبتت الرؤية، وأدركت أنني قد تحوَّلت بالفعل إلى كاتب محترف، وأن الحياة ربما يصبح لونها ورديًا يومًا ما.. ربما..

ومع توتري وانشغالي بالتفكير في عشرات الأشياء فاتتني أمر بسيط لم أنتبه إليه إلا صباح السفر إلى القاهرة وهو أنه لم يعد لدي (بنطلون) واحد يصلح للسفر!!..

وفي هلع، استنجدت بشقيقتي (إيمان) أو (منى) كما نُطلِق عليها والتي تقيم حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية، وتضرعت إليها أن تقوم بِكيّ (بنطلون)؛ لكي أسافر به.. ووافقت (منى) بشرط، واحد أنه إذا ما أفلح الأمر ووجدت نفسي يومًا كاتبًا مشهورًا أن أذكر أنها كانت صاحبة الفضل في هذا؛ لأنها قامت بكي (البنطلون).. وها أنذا أفي بالشرط!..

المهم أنني سافرت بالبنطلون (المكوي) ومعي صديقي (محمد حجازي)؛ لنسلم القصة الثانية للأستاذ (حمدي)، وانهمكنا في الحديث داخل الأتوبيس الذي يحملنا إلى القاهرة، قبل أن أهتف أنا فجأة وقلبي يسقط بين قدمي: «القصة؟!..»..

فمع كل ما أمرُّ به من انفعالات تذكرت كل التفاصيل حتى البنطلون ونسيت القصة نفسها في طنطا!!!

وأوقفنا الأتوبيس ونزلنا في الطريق الزراعي لنستقل أتوبيسًا آخر في الاتجاه العكسي ونعود إلى طنطا لإحضار القصة، وأصبحت واقعة نتندر بها حتى اليوم..

وسلمت الناشر القصة الثانية، وبعدها الثالثة، ولأوَّل مرة حملت سلسلة الخيال العلمي اسمًا واضحًا (ملف المستقبل) وبقي أن أكتب القصة الأولى من (رجل المستحيل)؛ لتنضم إلى شقيقته عندما يحين موعد النشر..

ولأن تأجيل المواجهات هو الخطوة الأولى للفشل فقد استعنت بالله، وبدأت أكتب أول قصة بعنوان (الاختفاء الغامض)..

وكما يحدث دومًا تعثّر قلمي في البداية ثم هدأ مع نهاية الفصل الأوَّل، وانطلق كالصاروخ بعدها حتى نهاية القصة وهذا ما يواجهني في كل عمل أكتبه حتى يومنا هذا...

قلق وحذر واستقرار.. ثم انطلاقة، حتى إنني أندهش أحيانًا لما كتبته إذا ما تصادف وراجعته إذ أنني من المؤمنين تمامًا بالتلقائية وأرفض بشدة تعديل ما انساب من عقلي إلى قلمي خلال اندفاعة الكتابة وحماستها..

وعندما انتهيت من القصة الأولى شعرت بنشوة ما بعدها نشوة وأسرعت أجري اتصالًا بصديقي رجل الأمن، وأرجوه أن يقرأ القصة الأولى، وبهدوئه المعهود وعدني بقراءتها بعد أن ينتهي من عملٍ ما بين يديه..

ولأنني لم أطق صبرًا على الانتظار حملت القصة بالفعل ووضعتها أمام الناشر الأستاذ (حمدي) وأنا أشرح له أسباب ومبررات السقوط في جريمة البطولة الفردية التي جعلني الجميع أشعر أنها عارٌ ما بَعده عار..

وقرأ الأستاذ (حمدي) القصة وأعجبته نسبيًّا ثم وافق ببساطة مدهشة على نشر سلسلة (رجل المستحيل)..

وطار قلبي من شدة الفرح، وعدت إلى طنطا رقصًا وليس رأسًا، وأسرعت أتصل مرة أخرى بصديقي رجل الأمن وأبلغه موافقة الناشر فتمنى لي النجاح ووعدني بقراءة القصة في الأسبوع نفسه..

وخلال ذلك الأسبوع كنت أشبه بطالب ثانوية عامة ينتظر معرفة مستقبله بفارغ الصبر، وكنت أقاوم بشدة رغبتي في الاتصال به ومعرفة رأيه الذي بدا لي أهم من أي رأيٍ آخر في الوجود..

وأخيرًا اتصل بي صديقي وأستاذي وسألته بكل اللهفة: «قريت؟!..»..

وجاء ردُّه الهادئ الرصين ليمزق مشاعري بمنتهى العنف؛ إذ أخبرني وبكل بساطة أن ما كتبته لا ينتمي إلى عالم المخابرات..

على الإطلاق..

وكانت صدمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

عالم المخابرات الحقيقي من الألف إلى الياء

أرقام توزيع الأعداد الأولى كانت ضعيفة جدًّا إلى حدٍّ لا يمكن تصوُّره..

—

تطلَّع إليَّ صديقي رجل الأمن طويلًا قبل أن يقول: «النجاح ما بيجيش بالسهل»..

—

غزارة الإنتاج أغرت الناشر بإصدار سلسلة جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعة واحدة من مكالمتي مع صديقي وأستاذي رجل الأمن، كنت أطير إليه وأجلس أمامه ليخبرني الأسباب التي جعلته يرفض وضع قصتي الأولى من سلسلة رجل المستحيل ضمن عالم أدب الجاسوسية والمخابرات..

ولقد استقبلني الرجل بابتسامة كبيرة وأكد لي أنه لم يقصد إحباطي على الإطلاق برأيه هذا وإنما قصد منحي رأيًا مهنيًا بحتًا، ثم بدأ يشرح لي أسبابه التي كان على رأسها عُقدة العُقَد: البطولة الفردية..

ففي عالم المخابرات -كما أخبرني في أول درس تلقيته في هذا الشأن- قد يؤدي المهمة في النهاية رجلٌ واحدٌ، ولكن الأمر يحتاج في مجمله لطاقم كامل من جامعي المعلومات والمخططين والخبراء والمحللين.. إلى آخره..

ثم إن عالم المخابرات -حسبما قال- يندر أن يعتمد على القوة والعضلات والأحداث العنيفة المثيرة، وإنما هو لعبة فن وذكاء وبراعة.. وسرية أيضًا..

وطوال أكثر من خمس ساعات متصلة لم أشعر شخصيًّا بمرورها، راح صديقي رجل الأمن يشرح ويشرح ويشرح، وأنا أستمع وأستمع وأستمع حتى انتهى إلى قوله: «القصة بوليسية مشوقة، لكن أنت محتاج تقرا كتير عن المخابرات..».. وبعدها ربَّت على كتفي وابتسم قائلًا: «ربنا يوفقك» وخرجت من فيلّته وقد اتخذت قرارًا حاسمًا جعلني أنطلق خلال أسبوع كامل في دورة مكتبية واسعة؛ لأقرأ وأشتري بمنتهى النهم، كل ما وقع تحت يدي من كتب عن عالم الجاسوسية والمخابرات..

وفوجئت بأن أمامي عالمًا هائلًا بلا حدود يمكنني أن أنهل منه لسنواتٍ دون أن ينضب أو يجب نبعه، خاصةً لو لم أقتصر على الكتابات العالمية أيضًا..

ويمكنني القول دون أدنى مبالغة أنني أصبحت أدفع سبعين في المائة مما أربحه لشراء كتب عن الجاسوسية والمخابرات..

وكتبت قصة رجل المستحيل الثانية، ثم الثالثة والرابعة..

وفي كل مرة كنت أهرع بالمخطوطات الأولى من كل قصة إليه؛ ليقرأها ويخبرني رأيه..

وبهدوئه المدهش، كان يقرأ القصص ويمنحني ملاحظاته وتعليقاته..

كنا قد اتفقنا على ضرورة صُنع شخصية فردية مثيرة، تنافس، بل وتتفوق على الشخصيات الأجنبية التي كانت رواياتها منتشرة حينذاك؛ لذا فقد تغاضى هو عن فردية العمل وراح يقيم المصطلحات والتكنيك وغيرها..

وفي كل مرة كان يؤكِّد لي بشدة أن الشخصية لا تعبِّر عنه، وأن حياته ليست بهذا العنف، وكنت أنا أبتسم؛ لأنني أعرف في قرارة نفسي أن حياته تفوق ما أكتبه ألف مرة..

المهم أن الشخصية تطوَّرت أكثر وأُضيفَتْ إليها كل المعلومات التي رُحت أستقيها من الكتب في نهم، وحانت لحظة الاختبار الحقيقية عند طرح السلسلة للبيع في الأسواق..

وفي المطبعة جلست مع الأستاذ (حمدي) نضع خطة الدعاية الأولية التي تمهِّد لصدور السلاسل التي أدركنا حتمية أن تحمل اسمًا مشتركًا تنظم بأسمائها الفرعية كلها تحت لوائه..

وفي الصحف اليومية مع اقتراب صيف ١٩٨٥م، بدأت حملة إعلانية مبهمة تحمل فقط أسماء السلاسل الثلاث التي كانت معدة للنشر آنذاك: (رجل المستحيل)، و(ملف المستقبل)، و(المكتب رقم ١٩)، والأخيرة كان يكتبها الزميل المستشار (شريف شوقي)..

كانت الأسماء الثلاثة تُنشَر إلى جوار بعضها البعض دون أية تفاصيل، وعلى الرغم من هذا فقد جذبت الانتباه وأطلقت موجة من التساؤلات عن ماهيتها رحت أتابعها في صمتٍ ولهفة في انتظار النتائج..

ثم جلسنا واعتصرنا عقولنا وظهر الاسم العام للسلاسل، والذي ظلَّت تحمله إلى الآن (روايات مصرية للجيب) وخرجت الإعلانات تحمل الاسم العام إلى جوار أسماء السلاسل، وتعلن صدورها بالتتابُع في الأول والعاشر والعشرين من كل شهر..

وعلى الرغم من أن المؤسسة لم تلتزم قَطّ بمواعيد الإصدار هذه، إلا أنَّ الأعداد الأولى من السلاسل الثلاث صدرت بالفعل وطُرِحَت في المكتبات في

الأول من يونيو ١٩٨٥م..

وعلى نحوٍ يخالف كل ما كان متبعًا أيامها، أكدت الإعلانات أن السلاسل الثلاث ستتواجد في المكتبات فقط وليس لدى باعة الصحف..

وخفق قلبي بعنفٍ مع صدور أعمالي الأولى كمحترف، وحملت النسخ الأولى منها لوالدي - رحمه الله- والذي لم يقتنع أبدًا بتركي لمهنة الطب، التي ظلَّ يحمل لها طيلة عمره تقديرًا كبيرًا لأُصبِح كاتبًا (أرزقيًا) لا يدري ماذا يكسب غدًا..

وتلقى والدي النسخ بتحفُّظ -كعادته-، وجلست أنا في انتظار نتائج البيع وأرقام التوزيع و...

وكانت الصدمة عنيفة..

إلى أقصى حد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما ظهرت كشوف توزيع ومبيعات الأعداد الأولى من سلاسل روايات مصرية للجيب، انتفض قلبي بكل لهفته وقلقه وفضوله لمعرفة ما آل إليه الأمر..

وكانت الصدمة عنيفة للغاية..

فأرقام التوزيع كانت ضعيفة جدًّا على نحوٍ لا يمكن أن أتصوَّره أو حتى أتخيله..

وأصابني إحباط شديد جعلني ألازم منزلي ليومين كاملين فكرت خلالهما جديًا بالتنازل عن حُلم حياتي، والعودة لممارسة مهنة الطب التي كنت قد اعتبرتها مجرد ماضٍ، وخاصة بعد أن استقلت فعليًا من وظيفتي بوزارة الصحة في منتصف عام ١٩٨٤م، باعتبار أنني كائن غير حكومي ينتعش بالحرية ويفسد بالروتين..

وبعد اليومين، استجمعت شجاعتي وسافرت إلى القاهرة لمقابلة الأستاذ حمدي، وهناك سألته عن جدوى الاستمرار في ظِل هذا الإخفاق الواضح، إلا أنني فوجئت به يبتسم في هدوء وثقة قائلًا: «اكتب انت بس وما تشغلش بالك بالتوزيع والمبيعات»..

وأدهشني الأمر للغاية؛ إذ أنني قد اعتدت أن يتعامل رجال الأعمال كلهم من منظور تجاري بحت لا يزن الأمور إلا بميزان المكسب والخسارة فحسب، ولم أدرك يومها أن عبارة المكسب والخسارة هذه قد تحمل معنى مختلفًا، عندما نمتلك نظرة بعيدة للأمور.

المهم أنني عدت إلى (طنطا) حائرا، متأرجحا بين التوقف والاستمرار، على الرغم من كلمات الأستاذ (حمدي) الهادئة المشجعة، والتي تصورتها يومها نوعا من الإشفاق على شاب فشلت أعماله، وضاع حلمه، ولم تكن طبيعتي لتقبل أبدا التعايش مع ظروف كهذه، لذا فقد لجأت إلى الشخص الوحيد، الذي كنت أثق تماما في أن رأيه لن يمتزج بأية مشاعر سلبية أو إيجابية.. إلى صديقي رجل الأمن..

وعلى الرغم من تعدد مشاغله في ذلك الحين، وافق الرجل على استقبالي على الفور، وكأنما استشعر توتراني من نبرات صوتي، واستقبلني بالفعل بنظرة متسائلة قلقة، واستمع إلى بمنتهى الانتباه، ثم تراجع في مقعده وتطلع إلى طويلاً، قبل أن يبتسم، ويقول بغاية الهدوء: "النجاح ما بيجيش بالسهل"..

لم يزد قوله عن هذا، ولكنني اكتفيت بالعبارة، واعتبرتها منهجا للمرحلة التالية، وأعدت دراسة الموقف كله؛ لأدرك أن الأستاذ (حمدي) قد منحنى فرصة عمر، لا ينبغي أن أفقدها بهذه البساطة، عندما طلب منى الاستمرار في كتابة روايات، فشل توزيعها تماما..

وبحماس مدهش، وانتعاش لم أدر كيف نشأ، عدت أقرأ كتب الجاسوسية والمخابرات بنهم ما بعده لهم، وعدت أكتب روايات (رجل المستحيل) بحماس ما بعده حماس..

وعندما حان الموسم التالي، كنت قد أنجزت روايات تكفي لأربعة مواسم تالية، على نحو أدهش المؤسسة نفسها، وأغرى الأستاذ (حمدي) باقتراح إصدار سلاسل جديدة، بدلاً من إنتاج أعمال فائضة، من السلاسل الموجودة بالفعل..

ومرة أخرى لم أفهم الأمر..

كيف يمكن أن يفكر ناشر ما، في إصدار سلاسل جديدة، من أعمال لم تحقق النجاح الكافي بعد..

أيامها كنت قد تزوجت (ميرفت)، وزادت مسئولياتي، واحتياجاتي المادية، ووجدت في إصدار سلسلة جديدة فرصة لزيادة الموارد، خاصة وأن التعاملات المالية مع المؤسسة كانت ممتازة ومنتظمة للغاية..

ورحت أفكر فيما يمكن أن تكون عليه سلسلة جديدة، بعد أن كتبت بالفعل سلسلة للخيال العلمي، وأخرى للجاسوسية والمغامرات.

ومع مولد ابني الأول (شريف)، ولدت فكرة السلسلة الجديدة، والمدهش أنها كانت تختلف عن كل ما خطر ببالي، وما يمكن أن يخطر على باب الأستاذ (حمدي) أيضا..

تختلف تماما.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

مع منتصف عام 1986م، ولدت السلسلة الجديدة (زهور)، وكانت سلسلة رومانسية، ذات طابع خاص جدا... وأيضا كان السبب هو المترجمات..

ففي تلك الفترة، كانت هناك روايات عاطفية منتشرة في الأسواق، وتحقق رواجا كبيرا بين الشباب، على الرغم من أنها مترجمات، تحوي كل ما يخالف تقاليدنا، وديننا ومجتمعنا..

لذا، فقد راودتني فكرة إصدار سلسلة نظيفة، تتحدث عن الحب كعاطفة سامية، وشعور لا ينبغي تلويثه، ولقد شاركني الأستاذ (حمدي) رغبتي هذه، أنه بعد أن قرأ القصة الأولى وضع شعارا للسلسلة يقول: إنها (السلسلة الرومانسية الوحيدة، التي لا يخجل الأب أو الأم من وجودها بالمنزل) وكان الشعار جديدا، وقويا، ومعبرا للغاية..

وفى الصفحة الأولى من القصة الأولى، كتبت إهداء لابني (شريف)، الذي توافق مولده مع مولدها..

كل هذا وأرقام التوزيع ما زالت أدنى من المتوقع، والأستاذ (حمدي) يصرّ على المواصلة، وأنا أواصل الكتابة بالفعل، في ثلاث سلاسل في آن واحد، وكلمة صديقي رجل الأمن ترن في أذني.. "النجاح ما بيجيش بالسهل"..

وفى (طنطا)، استقريت مع زوجتي (ميرفت)، وابني (شريف)، وبدأت رحلة أسبوعية، منها إلى القاهرة التي أصبحت مقر عملي الوحيد بعد استقالتي من وزارة الصحة، واكتفائي بالعمل في عيادة تخصصية صغيرة، تملكها جمعية (السيد البدوي) في (طنطا).

وعلى الرغم من انشغالي بكتابة ثلاث سلاسل قصصية ظللت شديد الالتزام بمواعيد العيادة، ومتابعة المرضى، وممارسة الجزء المتبقي لي من مهنة الطب، حتى فوجئت ذات يوم باللواء (الخولي) -المشرف على العيادة- يطلب مني مقابلته، ثم يسند إلى إدارتها كاملة..

وكانت مفاجأة بالنسبة لي بالفعل، إذ أنني، وعلى الرغم من ممارستي للمهنة، كنت أبعد زملائي عن فكرة الإدارة، بحكم طبيعتي وضيق وقتي، ولقد حاولت شرح هذا الأمر له، إلا أنه استخدم معي أسلوب الأبوة، الذي أضعف أمامه دومًا، حتى استسلمت للفكرة، وخضعت للأمر، وأصبحت بالفعل مدير العيادة التخصصية التابعة للجمعية..

ولولا خشيتي من إساءة تفسير كلماتي، لشرحت كم المشكلات والمتاعب التي واجهتني في ذلك المنصب على الرغم من بساطة المكان ومدى ما

فوجئت به من إهدار وسوء استغلال المال العام وبلطجة بعض القائمين عليه، حتى إن الأمر احتاج إلى معركة عنيفة تحت السطح لإعادة توزيع الأدوار، والسيطرة على الموقف، مما جعلني أتساءل لو أن هذا ما يحدث في عيادة صغيرة تتبع جمعية خيرية لا تستهدف الربح فما الذي يحدث في الشركات والمصالح الكبرى؟!..

وعلى الجانب الآخر ظهرت حالة من الغضب عند بعض الزملاء الذين رأوا أنهم أحق مني بالمنصب الذي لا يساوي منطوقه فعليًّا، باعتبار أنني قد اتخذت الكتابة والأدب مسارًا لحياتي ومستقبلي في حين ليس لديهم سوى الطب وحده..

وكان عليَّ أن أتجاوز كل هذا وأتفادى الصدام المباشر إلى أقصى حدٍّ حتى لا أخسر بعض زملاء المهنة أو أصدقاء الدراسة..

ولكن العيادة بدأت -ولأوَّل مرة- في تحقيق أرباح ضئيلة كانت كافية لنقلها إلى خانة الربح بجنيهات لا تشبع ولا تغني، ولكنها جعلت أعضاء الجمعية يتصوَّرون أنني إداري ناجح؛ مما دفعهم إلى إسناد منصب المدير في عيادة أخرى بالشارع نفسه إليَّ أيضًا..

وأصبحت المشكلة مشكلتين..

كل هذا وأنا أواصل القراءة بمنتهى النهم في كتب الجاسوسية والمخابرات، على أمل بلوغ مرحلة يرضى فيها أستاذي وصديقي رجل الأمن عما أكتبه اقتباسًا من شخصيته المبهرة..

وقبل أن أبلغ مرحلة الإرهاق واليأس التامين، علمت من أحد أصدقائي في المؤسسة أن أرقام التوزيع آخذة في الارتفاع على نحوٍ مُرضٍ، وأن الروايات قد بدأت تلقى رواجًا مفاجئًا..

وكان أسعد خبر سمعته في حياتي كلها، حتى إنني كدت أطير فرحًا وأنا أنقله إلى صديقي رجل الأمن الذي ابتسم بهدوئه المعهود وقال: «كل شيء وله أوان.. ده درس عشان تتعلم الصبر..»..

وتعلمت الصبر وذقت طعم النجاح لأول مرة ونمت قرير العين، ليوقظني أبي في الصباح الباكر وهو يحمل جريدة الأهرام متسائلًا: «المؤسسة اللي بتطبع كتبك اسمها إيه»..

لم أفهم سر السؤال المبكر هذا، ولكنني أجبته وأنا أفرك عيني إرهاقًا؛ فوضع الصفحة الأولى للأهرام أمامي وهو يقول في ضيق: «مكتوب إنها اتحرقت إمبارح»..

وسقط قلبي بين قدميَّ..

بمنتهى العنف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع

الحريق.. ميلاد جديد

أول مبلغ كبير أقبضه من رواياتي سقط من سيارتي سهوًا..

—

أصبحت بالنسبة للقراء أربع شخصيات مختلفة مع تنوُّع إصداراتي..

—

كنت أنشر خطابات تذمني؛ ليتعلَّم القراء المعنى الحقيقي للديمقراطية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أول قطار هرعت إلى القاهرة وكل ذَرَّة في كياني ترتجف من فرط هلعي لما أصاب المطبعة، وراح عقلي يحاول رسم صورة تخيلية لما حدث كما لو أنني لا أطيق صبرًا على الوصول إلى المطبعة ورؤية الأمور بعيني..

وعندما وصلت بدا لي الأمر عجيبًا إلى حدٍّ ما؛ فباستثناء بعض اللون الأسود في الطابق العلوي، لم يكن هناك أثر خارجي لحجم الحريق الذي تحدثت عنه الصحف والذي بلغت خسائره -كما ذكرت جريدة الأهرام- حوالي مليون جنيه وهو مبلغ باهظ بمقاييس تلك الفترة من منتصف ثمانينيات القرن العشرين..

والتقيت بالأستاذ حمدي وهو يتفقد الخسائر بنفسه، وطلبت منه أن يعتبرني جنديًا تحت قيادته حتى يتم تجاوُز الأزمة، ولكن العجيب أنه كان متماسكًا ويتمتع بروح معنوية ممتازة، على الرغم مما حدث، وخاصة عندما اصطحبني إلى مكتبه وراح يروي لي ما حدثَ على نحوٍ جعلني أدرك حتمية ألا أثق في أي أخبار تنشرها الصحف الحكومية.. حتى أخبار الحوادث..

فوفقًا لما نُشِرَ «هرعت إلى المكان فور اندلاع الحريق تسع عربات إطفاء وبصحبتها العميد فلان واللواء علان والعقيد ترتان وأن الجميع بذلوا كل جهدهم للسيطرة على الحريق»، ولكن رواية كل شهود العيان كانت مختلفة..

ومضحكة..

ومؤسفة أيضًا..

فلا أحد رأى أي لواء أو عميد أو عقيد، بل عدد من صغار الضباط والجنود المرتبكين الذين لا يعرفون كيفية التعامل مع مطبعة تحترق وتحوي ورق طباعة وأحبار من كل صنف ولون..

فعربات الإطفاء التسع حضرت بالفعل، ولكن ليس للتعاون، وإنما لأن ثماني منها كانت مضخاتها مُعطَّلة أو كانت خالية من المياه (شوف التهريج)؛ لذا فقد تولت العربة التاسعة وحدها إطفاء الحريق..

حاول أن تحسب معي الوقت الذي استغرقه وصول كل عربة وكشف عدم صلاحيتها لتعرف كم بلغت الخسائر.. بسبب رجال الإطفاء!!..

الأسوأ أن السيارة التاسعة استخدمت خراطيم المياه لإطفاء حريق المطبعة، مما أدي إلى إتلاف أطنان من الورق في الطوابق التي لم تكن تتعرض للحريق وكأن رجال الإطفاء لم يدرسوا أو يمتلكوا وسيلة أخرى مثل البودرة أو المواد الرغوية للإطفاء!!..

وبحساب الخسائر، تبين أن ما يزيد عن السبعين في المائة منها كان بسبب أخطاء شرطة الإطفاء في التعامل مع الموقف!!..

الشيء الوحيد الذي أحزن الأستاذ حمدي حينذاك كان احتراق ماكينة طباعة جديدة لم تُستخدَم بعد تم استيرادها خصيصًا لروايات مصرية للجيب، إذ كانت من الجيل الأول القادر على طباعة الألوان الأربعة في مرحلة واحدة..

ولقد جرت عدة محاولات لإصلاح تلك الماكينة، إلا أنها باءت كلها بالفشل..

المهم أن المطبعة قد تجاوزت مأساة الحريق..

أما أنا فلم يكن من السهل أن أتجاوزه أبدًا..

ففي الليلة نفسها، وعندما ذهبت إلى تلك العيادة الخيرية، فوجئت بموقف لم أهضمه قَطّ حتى يومنا هذا!!..

فعلي نحو مباغت زارني زميل لم تكن تربطني به صداقة ما، ليخبرني بكل تشفٍّ أنه قد قرأ خبر احتراق المطبعة، ثم ارتدى ثوب الناصح وهو يؤكِّد لي خطأ قراري بالاستقالة واحتراف الأدب، وأنه من الصواب بعد احتراق المطبعة أن أقر بالخطأ وأسعى للتراجع عن استقالتي باعتبار أن مغامرتي قد فشلت واحترقت وأثبتت أنني شخص أحمق..

يومها استمعت إليه في صمتٍ ودون تعليق واحد وأنا أشعر نحوه بمزيج من الشفقة والمرارة، حتى انتهى من حديثه، فأخبرته أنني سأفكر فيما قال، مما جعله ينصرف مرتاحًا وإن لم يَنْسَ أن يمنحني نظرة تشفٍّ أخيرة قبل أن يغادر العيادة..

وخرجت من العيادة بعد انتهاء ساعات العمل وأنا أزمع التوجه لزيارة صديقي وأستاذي رجل الأمن، إلا أنني تراجعت عن هذا على بُعد أمتارٍ قليلة من منزله، عندما شعرت أنه من العار أن يراني بكل ما يملأ نفسي من حزنٍ

وإحباطٍ، وعدت إلى منزلي وجلست في حجرة مكتبي أعيد دراسة الموقف كله، وأستعيد كل كلمة سمعتها وكل تناقُض حدثَ مع تفاؤل الأستاذ حمدي وشماتة زميل الدراسة..

ثم فجأة قفزت إلى ذهني فكرة لا تتناسب أبدًا مع الموقف؛ فقد قرَّرت مقاومة حالة الإحباط داخلي بوضع أسس سلسلة جديدة.

سلسلة مختلفة تمام الاختلاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حريق المطبعة وموقف زميلي الشامت جعلاني أشعر برغبة شديدة في التعبير عما يجول في نفسي على الورق، وفي أن تكون هناك مطبوعة يمكنني أن أفرغ فيها مشاعري وخواطري وفلسفتي، وكل وسائل التعبير الأخرى التي لا تندرج تحت إحدى الخانات التي تمثلها سلاسلي الثلاث؛ المخابرات والخيال العلمي والرومانسية..

ففي أعماقي كانت هناك كومة من الأفكار تتشوق للخروج في هيئة قصص قصيرة ودراسات وخواطر وغيرها؛ لذا فقد جاءت السلسلة الجديدة معبِّرة عن كل هذا حتى إنني لم أجد لها عنوانًا في البداية، ثم لم ألبث بعد أن أعيتني الحيرة أن أطلقت عليها اسم (كوكتيل)..

ومع مولد (كوكتيل) تفجَّرت داخلي طاقاتٌ لم أتصوَّر وجودها قَطّ؛ ففيها كتبت كل ما يحلو لي حتى أصبحَتْ -وما زالت- واحتي التي أجد فيها راحتي واستقراري، وأخاطب عبرها القراء أو أصدقاء الورق كما أسميهم والتي وضعت لها سياسة خاصة جدًّا منذ نهاية الثمانينيات وهي حتمية نشر رسائل القراء بمنتهى الديمقراطية والحيادية، حتى إنني كنت أنشر رسائل تهاجمني وتتهمني بأنني أسوأ كاتب في الكون، أو بأن أعمالي أتفه من أن تُقرَأ، حتى يتعلم القارئ معنى الحرية والديمقراطية وأنها ليست ديمقراطية المدح فحسب..

وعلى الرغم من أن توزيع (كوكتيل) لم يبلغ حدًا يستحق الفخر في حينها، إلا أن صدورها توافق مع زيادة مفاجئة في أرقام توزيع السلاسل الأخرى، وفي دخلي السنوي بالتالي..

والمدهش أنني صرت بالنسبة للقراء أربع شخصيات مختلفة؛ فبعضهم يعتبرني كاتبًا للخيال العلمي، والبعض الآخر يتابع روايات الجاسوسية ويسألني ما إذا كنت رجل مخابرات!.. أما البعض الثالث وهو من الجنس اللطيف لحسن الحظ، فقد أصبح يتعامل معي باعتباري رومانسيًّا ولست مجرَّد كاتب لروايات رومانسية!..

ويبدو أنني أيضًا كنت أعتبر نفسي كذلك، إذ كنت أتحوَّل إلى شخصية أخرى مع كل رواية أكتبها وأعيشها حتى النخاع..

ومع نهاية فصل الصيف، بلغني من المؤسسة أجمل خبر سمعته في حياتي كلها وهو أن الروايات قد حققت رقمًا قياسيًّا في التوزيع، وأصبحت مطلوبة في كل أنحاء المعمورة، وأن هناك مبلغ ألفيناتي ينتظرني في المطبعة..

ولأوَّل مرة في حياتي سافرت إلى القاهرة بسيارتي التي كنت أخشى قيادتها على الطرق السريعة، ووصلت إلى المطبعة وكلي لهفة لمعرفة الرقم الذي سأحصل عليه بعد نجاح التوزيع..

وفي قسم الحسابات تم خصم كل المبالغ التي تقاضيتها خلال العام ليتبقى لي في النهاية حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة جنيه تقريبًا، كانت تعتبر مبلغًا كبيرًا بمقاييس تلك الفترة ووضعَ رئيس الحسابات المبلغ في مظروف وسلمني إياه وغادرت المؤسسة وأنا في قمة السعادة..

وأمام الباب استوقفني أحد عُمَّال المطبعة ليسألني عن بعض الأعراض المرضية التي يعانيها، ومع انشغالي بالحديث معه، وضعت المظروف على سقف السيارة ثم نسيت هذا واستقللت سيارتي وانطلقت بها عائدًا إلى طنطا..

وبينما أعبر ميدان العباسية تذكَّرت الأمر فجأة، فأصابني الهلع، وتوقفت في منتصف الطريق وأوقفت المرور تمامًا وتجاهلت السباب واللعنات من حولي وأنا أخرج لإلقاء نظرة على سقف السيارة قبل أن أشعر بقبضة باردة كالثلج تعتصر صدري..

فلقد اختفى المظروف والنقود..

تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس

القصور الذاتي.. درس في الحياة

كنت أخشى انخفاض مستحقاتي، ففوجئت بأنها قد تضاعفت.

—

شعرت برجفة عندما أخبرني أستاذي رجل الأمن أنني أصبحت أُشبه رجال المخابرات.

—

مع اقتراح الناشر وجدت نفسي مذعورًا من فكرة الانتقال إلى القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لست أذكر أنني قد شعرت في حياتي كلها بالإحباط مثلما شعرت به في تلك اللحظة التي كشفت فيها ضياع أول مبلغ (كاش) أقبضه من كتبي؛ فخلال السنوات التي مضت، منذ بدء تعاوني مع المؤسسة وحتى تلك اللحظات المحبطة، كنت أستهلك معظم الدخل في مصروفات المنزل، بعد أن استقلت من وزارة الصحة، وكنت قد حصلت على قرض من المؤسسة لشراء أول سيارة في حياتي وكل دخلي من الكتب كان يسدِّد التزاماتي حتى أصبح هناك فائض لأول مرة..

وها أنذا أفقده بإهمال سخيف..

في البداية راودتني فكرة الاستسلام للقدَر، والعودة إلى طنطا خالي الوفاض، إلا أن طبيعتي الرافضة للهزيمة والاستسلام، سرعان ما انتصرت على الموقف ودفعتني لاتخاذ قرار مخالف تمامًا..

قرار بأن أعود أدراجي، وأتخذ نفس المسار لعلَّني أعثر على المظروف.. وعلى أول مكسب كبير في حياتي..

كانت الاحتمالات تقترب من الصفر، وعلى الرغم من هذا فقد انطلقت بالسيارة (١٣٢ أزرق ميتالك) عائدًا إلى المطبعة التي لم أتوقف عندها؛ لأن الخجل قد منعني من الإشارة إلى ضياع النقود منِّي أو حتى السؤال عنها أو لأن اسمي كان مكتوبًا على المظروف بوضوح، وكلي ثقة في أنهم سيعيدونه إليَّ إذا ما عثر عليه أحدهم، وواصلت طريقي متخذًا نفس مسار انصرافي السابقة..

وفي تلك اللحظات حاولت استنفار عقليتي البوليسية واستنتاج أن المظروف قد سقطَ في أول ملف بفعل القصور الذاتي أو أنني قد حاولت إيهام نفسي بهذا، إلا أنه لم يكن هناك..

وفي روح يغمرها اليأس، واصلت طريقي متجهًا إلى هندسة عين شمس التي تقع خلف المؤسسة تمامًا، وبدأت أقتنع بأنني قد فقدت النقود بالفعل و...

وفجأة لمحته..

مظروف أبيض ملقى عند قاعدة الرصيف وطلبة الكلية يغادرونها ويعبرون فوقه بلا مبالاة دون أن يلتفت مخلوقٌ واحد إليه..

وخفق قلبي بعنف.. بل بمنتهى العنف..

أمن الممكن أن يكون هو نفسه مظروفي الذي يحوي أول مكسب؟!..

وبقلب يدق ألف دقة في الدقيقة (وهذا الكلام ليس للأطباء) مِلت بالسيارة نحو الرصيف وأوقفتها إلى جوار ذلك المظروف بالضبط، ثم ملت لأفتح باب السيارة الأيمن وتطلعت إليه..

وقفزت دقات قلبي من ألف إلى مليون..

فربما لا تصدقون كما لم أصدق أنا، ولكنه كان مظروفي بالفعل.. عليه اسمي في وضوح، وداخله المبلغ كاملًا لم ينقصه جنيه واحد..

ولدقيقة أو يزيد، جلست داخل السيارة صامتًا لا أصدق ما حدث، وأدركت عندئذ فقط أن المال الحلال بالفعل لا يضيع أبدًا..

وعندما أدرت محرك سيارتي، كانت أصابعي ترتجف من فرط الانفعال، حتى إنني قدتها بسرعة عشرين كيلو متر في الساعة حتى خرجت من القاهرة وخلفي موجات من السباب والشتائم بسبب تعطيل الطريق..

ولأوَّل مرة في حياتي شعرت أن الطريق إلى طنطا طويل.. طويل جدًّا؛ من شدة لهفتي على الوصول ومشاركة زوجتي قصة ضياع النقود وعودتها..

ولكن فور وصولي إلى طنطا، وجدت نفسي أتجه أوَّلًا إلى أستاذي وصديقي رجل الأمن دون ميعاد سابق لأول مرة، ولم يكد يستقبلني حتى رويت له القصة كاملة..

وبابتسامة حانية هادئة وصبر عهدته فيه دومًا، استمع إليَّ جيدًا حتى انتهيت من روايتي، وانتظرت منه أن يشاركني فرحتي في استعادة النقود، إلا أنه ظلَّ صامتًا بضع لحظات قبل أن يميل نحوي قائلًا في جدية واهتمام: «المفروض ده يعلمك درس».

سألته في دهشة: «درس إيه؟!..».

أجابني في جدية شديدة: «ما تخليش الأمور الفرعية تشتت انتباهك عن الأمور الرئيسية مهما كانت الأسباب».

لم يرق لي موقفه في البداية، ويبدو أن هذا قد بدا واضحًا على ملامحي؛ لأنه ابتسم قائلًا: «وما تغضبش من كلمة الحق كمان»..

وكان هذا أهم درس تلقيته في حياتي كلها، وما زلت أعمل به حتى يومنا هذا..

المهم أنني قد عدت إلى زوجتي وأخبرتها بالأمر، وقررنا أن نستغل جزءًا من المبلغ في رحلة صيفية تغسل عناء عمل الشتاء كله..

وفي الصباح التالي اصطحبنا (شريف) وشقيقته (ريهام) التي وُلِدَت بعده بعام واحد إلى المعمورة، في شقة أهدانا مفتاحها الأستاذ حمدي أيضًا، وقضيناً ليلتنا الأولى هناك نخطط لما سنفعله بباقي المبلغ، ونمنا قريري العين..

وفي الصباح التالي استيقظت على رنين جرس الباب، ووجدت حارس العمارة أمامي يخبرني أن الأستاذ حمدي يبحث عني؛ لأنه هناك خطأ في حساب مستحقاتي المالية..

وقفزت دقات قلبي مرة أخرى إلى الألف..

أو يزيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في إحباط شديد وقفت في سنترال المعمورة أنتظر دوري للاتصال بالقاهرة ومعرفة مقدار ذلك الخطأ في الحسابات بعد أن وضعت خططًا بالفعل لإنفاق ضعف المبلغ، على الأقل في الفترة التالية..

كان منزلنا ينقصه الكثير، وكنت أحلم باستكمال النواقص بوساطة ذلك المبلغ، وخاصة لعمل حجرة نوم للأطفال في الحجرة التي بقيت خالية لدينا؛ لأنني لم أكن أملك أيامها ما يكفي لفرشها..

ولقد استمر انتظار دوري في المكالمة نصف ساعة كاملة بدت لي أشبه بدهرٍ كاملٍ وأنا أحسب وأعد وأتساءل: ترى كم سيتبقى من الثلاثة آلاف وسبعمائةً جنيهٍ؟!... ألف أم خمسمائة بعد ضبط الحسابات..

وأخيرًا تحدثت مع الأستاذ (حمدي) وسألته في حذرٍ عن ذلك الخطأ في حساب مستحقاتي، وهنا فوجئت بالرجل يعتذر في شدة وحرارة وهو يخبرني أن هناك بالفعل خطأ في الحسابات؛ لأنني أستحق سبعة آلاف ومائة جنيه، وليس ثلاثة آلاف وسبعمائة..

ولم أدرِ لحظتها ماذا أقول؟!.. لقد انعقد لساني في حلقي وأنا أتساءل في أعمق أعماقي: أيمكن أن يكون هناك مخلوق واحد بكل هذا الشرف والنزاهة؟!..

الرجل يبحث عني بكل الوسائل الممكنة ليخبرني أنه يدين لي بنقود؟!..

وفي هذا الزمن؟!..

وبكل احترام وتقدير شكرت الأستاذ (حمدي) على اهتمامه، وأخبرته أنني سآخذ باقي المبلغ عند عودتي إلى القاهرة، إلا أنه أصرَّ بشدة على أن يرسل لي باقي الحساب في الإسكندرية؛ لأنه لا يحب أن يكون مديونًا لأحد -على حد قوله-!!..

ومنذ تلك الواقعة اختلف موقفي مع المؤسسة وصاحبها على نحوٍ مدهش؛ إذ بدأت أتعامل مع المكان باعتباره منزلي الثاني، واعتبرت نفسي ابنًا له وجزءًا لا يتجزأ منه..

ومع كل هذا ظللت أقرأ كتب الجاسوسية والمخابرات بمنتهى النهم والشراهة، وتضاعفت لقاءاتي مع صديقي وأستاذي وملهمي رجل الأمن الذي تحوَّل إلى المصدر الرئيسي لمعلوماتي وخبراتي عن ذلك العالم الغامض المثير، وأصبحت لقاءاتنا دروسًا في كيفية التعامل معه حتى إن أستاذي قد توقف ذات مرة عن الحديث فجأة وابتسم قائلًا: «تعرف.. لو استمرينا على كده ست شهور كمان حتبقى أخدت دورة مخابرات..»..

قالها وضحك، ولكنني لم أضحك، وإنما انبهرت وشعرت برجفة تسري في كل خلية من خلاياي لمجرد تصور الفكرة..

وعبارته هذه جعلتني أقبل على هذا العالم أكثر وأكثر.. وبدا التطوّر واضحًا في روايات (رجل المستحيل) نفسها إذ بدأت بالفعل تتخذ منحنى جديدًا أكثر حرفية ودقة، ويبدو أن القارئ نفسه قد أدرك هذا، إذ أن أرقام المبيعات راحت ترتفع وترتفع..

ومع ارتفاعها تزايد نهمي أكثر، وتضخمت مكتبة الجاسوسية التي أملكها حتى كادت تحتل نصف جدار كامل في حجرة مكتبي الصغيرة في طنطا حيث منزلي الذي صار يضيق بالكتب والموسوعات و...

«مش عايز بقى تتنقل مصر؟!..»..

ألقى عليَّ الأستاذ (حمدي) السؤال في اهتمام ونحن نناقش خريطة مبيعات الروايات، فشعرت بالقلق وأنا أقول: «بصراحة.. خايف..»..

وهنا بدا الحماس في صوت الأستاذ (حمدي) وملامحه وهو يشرح لي مزايا الانتقال إلى القاهرة، حيث منابع الثقافة والمعرفة وامتيازات القرب من مراكز صناعة القرار..

كل هذا كنت أدركه جيدًا، إلا أن فكرة ترك مدينتي التي نشأت وترعرعت فيها وقضيت في ربوعها طفولتي وصباي وشبابي كان أمرًا يصيبني بالقلق والذعر، وقرارًا كنت أؤجله وأؤجله، خشية مواجهته..

ولكن الأستاذ (حمدي) جعلني أواجهه على نحوٍ لم يحدث من قبل، وبأسلوب لا يمكن مقاومته..

لقد أعطاني شقة في (القاهرة)..

ومع وجود الشقة بدأت أقنع زوجتي بفكرة الانتقال والهجرة إلى العاصمة وهي تواجهني بنفس مخاوفي وتقارعني الحجة بالحجة، ثم انتهينا إلى أن أمنحها فرصة للتفكير قبل أن تتخذ قرارها في هذا الشأن..

ونمنا وقد ارتحنا للقرار، لأستيقظ على صرخات زوجتي الملتاعة..

ففي منزلنا حدثت كارثة..

مؤلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

إرادة الله.. واتصال هاتفي من المخابرات

مقالي الأوَّل عن الجاسوسية رفضه الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع)؛ لأنه لا يصلح صحفيًّا..

—

عقدت جلسات عمل مع (سمير الإسكندراني) لصياغة عمليته المخابراتية في كتاب..

—

سكرتيرة مجلة الشباب اتصلت بي مرتجفة وهي تقول: «المخابرات عايزاك»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فقدنا ابنتنا.. كنا نستعد للاحتفال بعيد مولدها الأول عندما استيقظت أمها وذهبت لتتفقدها في الصباح فوجدتها هادئة ساكنة في مهدها وقد انتقلت روحها إلى بارئها..

وكانت صدمة لها ولي، وللعائلة كلها، وبخاصة لابننا الأكبر شريف الذي استيقظ مذعورًا على صرخات أمه الملتاعة التي انتزع الموت منها صغيرتها، كعادته دون سابق إنذار..

وبسرعة اكتظ منزلنا بأفراد العائلة والمعزين والأصدقاء من كل الاتجاهات، وأصيب شريف بالفزع أكثر مع البكاء والنحيب والانهيارات، وشعرت لحظتها على الرغم من الحزن الذي يعتصر كياني، بأنني مسئول عن حماية زوجتي وابني من ذلك الموقف العصيب؛ لذا فقد اصطحبت شريف إلى حجرته ووضعته أمام التليفزيون وأدرت له أحد أفلام الرسوم المتحركة التي يعشقها..

وهنا فوجئت بعاصفة من الغضب والسخط باعتبار أنني رجل عديم الذوق والدم؛ لأنني أشغل التليفزيون في مثل هذه الظروف، ولكنني تجاهلت كل هذا كعادتي أيضًا وأوليت اهتمامي إلى زوجتي لأحميها من الانهيار..

كانت فترة لن أنساها أبدًا، وبخاصة تلك اللحظة التي حملت فيها صغيرتي بين ذراعي لأودعها مثواها الأخير..

في تلك الأيام كنت قد امتنعت عن التدخين بعد فترة من الإقبال النهم عليه؛ إذ كنت أدخن خمس علب سجائر يوميًا وكأنني أنتقم من الأيام التي توقفتُ فيها عن التدخين لضيق ذات اليد، ومع وفاة ابنتنا حاول الكل تعزيتي بسيجارة في عادة مصرية أعجز عن فهمها حتى الآن، إلا أنني أصررت على عدم العودة للتدخين على الرغم من الموقف، وقلت لنفسي إن هذا من أجل ابنتي الراحلة وليس من أجلي..

وقد كان.. ولم أدخن سيجارة واحدة من يومها وحتى يومنا هذا عبر ما يقرب من سبعة عشر عامًا كاملة.. وأيضًا من أجلها..

وفي مساء يوم الوفاة زارني صديقي رجل الأمن معزيًا وشدَّ على يدي في قوة وهو يتطلَّع إلى عيني مباشرة وقال بجدية بالغة: «شِدّ حيلك.. الشدائد تصنع الرجال..» ويومها لم يتعرفه أحدٌ..

جاء وجلس مع أسرتي وأصدقائي وأقاربي وتحدَّث لنصف الساعة مع والدي، وعندما انصرف جاء الكل يسألني: «مين ده؟!..»..

وأخبرتهم أنه صديق قديم ربطتني به الظروف، ولم أخبرهم بالطبع عن مهنته، ولكن والدي - رحمه الله - قال في رصانة: «راجل محترم وله هيبته..»..

وبعد انصراف الجميع أدركت أن دوري ينحصر في التسرية عن زوجتي التي ظلت تبكي طوال الوقت تقريبًا، حتى أخبرتها أنها إرادة الله سبحانه وتعالى، وأنه ربما حرمنا من ابنة ليمنحنا ابنتين..

والمدهش أن هذا ما حدثَ بالفعل؛ فقبل انتقالنا إلى القاهرة حملت زوجتي وأنجبت بالفعل طفلة أطلقت عليها نفس اسم الطفلة الراحلة (ريهام).. وكانت نظريتي في هذا هي أن تشعر زوجتي بتعويض عن ابنتها المفقودة، وأن تنسى مع الابنة الجديدة أحزان القديمة..

وبعد مولد ريهام، قررنا اتخاذ الخطوة التي طال انتظارها، ألا وهي الانتقال إلى العاصمة..

وانتقلنا إلى شقتنا الجديدة في القاهرة لنبدأ مرحلة جديدة من حياتنا..

كانت الشقة أنيقة للغاية، وأفضل كثيرًا من شقتنا في طنطا، وعلى الرغم من هذا فقد شعرنا فيها بالحيرة والتوتر وبلمحة من الضياع..

كل شيء حولنا كان غريبًا لم نألفه بعد.. الجيران والأماكن والمحال التجارية..

كل شيء كنا نتعامل معه بمنتهى الحذر، وخطوة بخطوة عبر حياة مرتبكة خاصة وأننا كنا قد قررنا بدء الشقة الجديدة بأثاث جديد ولم نكن قد شيدنا

المطبخ بعد..

ولكن كل شيء لم يلبث أن هدأ واستقر، وبدأنا نألف المكان والجيران والمنطق،ة ورحت أعمل بنشاط أكثر وحماس أكثر، ولكن انتقالنا إلى القاهرة أبعدني عن صديقي رجل الأمن فاقتصرت علاقتنا على الاتصالات الهاتفية والزيارات الخاطفة كل حينٍ وآخر..

وفي وقتٍ واحدٍ، رحت أعد شقتي ومكتبي الذي أعطاني إياه أيضًا الأستاذ (حمدي) الذي أحتاج إلى جريدة كاملة لسرد ما قدَّمه لي طوال عشرين عامًا كاملة..

وكان من الطبيعي والحال هكذا أن أشعر بالاستقرار، وأن أقرأ أكثر وأكتب أكثر، وأن أفكِّر أيضًا في عمل جديد..

عمل يختلف عما سبقه تمام الاختلاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع استقرارنا في (القاهرة) واعتيادي نمط الحياة الجديد، بدأَتْ تراودني بشدة فكرة القيام بعملٍ جديدٍ.. عمل يختلف تمامًا عن كل ما أقوم به بالفعل..

كنت أيامها أكتب بعض القصص المصوَّرة في مجلة (باسم) السعودية ومقالات محدودة متنوعة في مجلة (الشرق الأوسط) التي تتبع المؤسسة نفسها، وأعمال أخرى متفرقة في صحافة عربية محدودة القارئ تمنحني استقرارًا ماديًا، ولكنها لا تُشبِعني أدبيًّا أو صحفيًّا، وكنت أتمنى الدخول في عالم الصحافة المصرية باعتبارها الباب الملكي للنجاح والانتشار صحفيًّا..

وبينما أبحث عن تلك الفكرة الجديدة فوجئت باتصال تليفوني من الأستاذ (سيد عزمي) من مجلة (الشباب)، أكثر مطبوعات مؤسسة (الأهرام) انتشارًا، يخبرني فيه أن اسمي قد طُرِحَ في اجتماع خاص بتطوير المجلة، وأن الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) يرغب في مقابلتي..

ولم أصدق نفسي، فالكتابة في مطبوعة كهذه كان يفوق أكبر أحلامي، حتى إنني لم أجرؤ على التفكير فيه أثناء وضع خططي المستقبلية..

وفي حماسٍ شديدٍ ورهبة لم أشعر بمثلها إلا مع الأستاذ (حمدي) ذهبت لمقابلة الأستاذ (عبد الوهاب) الذي أدمنت قراءة مقالاته واستقبلني الرجل بابتسامة هادئة، وبترحاب واضح، وطلب مني كتابة صفحتين شهريتين عن الجاسوسية في مجلة (الشباب)..

ويمكن القول بأنني قد خرجت من مكتبه (رقصًا) إلى منزلي، وقضيت ليلتي كلها أضع أُسسَ وقواعد الصفحتين، وكل الأساليب التي يمكن أن أقدِّمها بها.. وبعد ثلاثة أيام فحسب كنت أهرع إلى صديقي رجل الأمن، وأطلب رأيه في العمل الذي يُعَدّ أول أعمالي عن الجاسوسية في الصحافة المصرية..

وقرأ أستاذي المقال في هدوءٍ، ثم أعاده إليَّ قائلًا: «ممتاز، بس مش عارف ينفع صحفيًا ولّا لأ..»..

وبكل الحماس رحت أؤكِّد له أن العمل يصلح صحفيًا بالدرجة الأولى، وأنه يقوم بتعريف المخابرات وتحديد أنواعها وأنواع الجواسيس و...

وابتسم أستاذي وهو يقول: «يبقى على بركة الله»..

وفي الليلة نفسها كنت أقدِّم المقال للأستاذ (عبد الوهاب) الذي قرأه في سرعة، ثم قال في هدوء ودون مواربة: «كويس.. بس ما يصلحش صحفيًّا..»..

وكانت صدمة شديدة جعلتني أصمت تمامًا، وأستمع إلى الأستاذ (عبد الوهاب) وهو يشرح لي الفارق بين الأسلوب الأدبي والأسلوب الصحفي، ويضع في أعماقي اللبنة الأولى لصحفي وليد ينشأ في قلب طبيب سابق وأديب تحت التأسيس..

وكتبت المقال مرة ثانية، وأعلَن الأستاذ (عبد الوهاب) قبوله له، وصدر بالفعل كبداية لسلسلة مقالات لم تنقطع حتى يومنا هذا..

ومع مقالاتي عن عالم الجاسوسية ازداد ارتباطي بأستاذي رجل الأمن أكثر وأكثر، ورحت أتزوَّد منه بالمعلومات التي كانت وما زالت تبهرني، وأيضًا حتى يومنا هذا..

وخلال عامٍ أو يزيد تضخَّمت مكتبتي الخاصة بكتب الجاسوسية والمخابرات، باللغتين العربية والإنجليزية، وأصبحت لقاءاتي مع أستاذي شِبه منتظمة في نفس الوقت الذي طلب مني فيه الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) الاتصال بالفنان (سمير الإسكندراني) الذي يرغب في تحويل عملية الجاسوسية التي قام بها في الستينيات إلى كتاب يحوي كل التفاصيل..

واتصلت بسمير الإسكندراني بالفعل، وبدأنا نعقد جلسات عمل ليسجل بصوته تفاصيل عمليته المثيرة و...

وفجأة.. وبينما كنت أزور والدتي في (طنطا)، فوجئت بالآنسة (آمال) سكرتيرة مجلة (الشباب) تتصل بي وصوتها يرتجف بشدة وهي تقول مضطربة: «المخابرات اتصلت وعايزاك..»..

وكانت مفاجأة..

قوية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

قانون الكتابة عن عالم المخابرات

اتصال سكرتيرة مجلة الشباب أصابني أيضًا بتوتر غير واضح المعالم؛ فمن الناحية المنطقية كنت أدرك أن الأمر ليس خطيرًا أو سيئًا كما تصورَتْ هي، وإلا لِمَا تم بهذا الأسلوب المحترم المهذب، إذ اتصل بها السيد (ل) وطلب منها أن تبلغني أنهم يريدون التحدُّث معي في المخابرات العامة وترك رقم هاتف للاتصال..

ثم إنني، كنت وما زلت، وسأظل أشعر تجاه المخابرات المصرية باحترامٍ وتقديرٍ شديدين، وأمنحها ثقتي بلا حدود، باعتبار أنها الجهاز المسؤول عن حمايةً الأمن القومي للوطن والجهة التي بهرني أستاذي (الراحل) (صالح مرسي) بالكتابة عنها، والإشادة بها لسنواتٍ وسنواتٍ..

إلا أن الأمر كان مغلَّفًا بذلك العامل الذي يرتبط دومًا باسم المخابرات..

الغموض..

وحسمًا لكُلّ التخمينات والتوترات، هدَّأت من روع (آمال)، وأخبرتها أنني سأجري الاتصال على الفور، وهذا ما قمت به بالفعل بعد اتصالي بصديقي رجل الأمن، الذي قال بمنتهى الحزم: (اتصل فورًا.. الناس دي محترمة جدًّا)..

وأجريت الاتصال الهاتفي مع السيِّد (ل) الذي تحدَّث إليَّ بأسلوب غاية في التهذيب والذوق، وحدَّد لي موعدًا للقاء السيد (ع)..

وفى ليلة اللقاء، كان من المفترض أن نواصل العمل في رواية (سمير الإسكندراني) الذي استشرتُه بشأن الأمر، فتحمَّس بدوره وأخبرني -لأوَّل مرة- أنه يوجد قانون يحكم الكتابة عن عالم المخابرات، وأنه من المحتمل أنهم يريدونني لهذا الشأن.

وعلى الرغم من أن كلماته كانت تستهدف تهدِئتي، إلا أنها أثارت في أعماقي المزيد من التوتر الذي تواصل معي طوال الليل وحتى لحظة وصولي إلى مبنى المخابرات العامة في كوبري القبة، وجلوسي في صالة الانتظار متسائلًا عما ستحويه تلك المقابلة.

ودون الدخول في تفاصيل قد تمثِّل خَرْقًا لإجراءات الأمن الداخلية، التقيت في النهاية بالسيد (ع) الذي استقبلني في حرارة وترحاب شديدين، وراح يتحدَّث معي بعض الوقت عن أمورٍ تهمني وكأنما لديه معلومات كاملة عني، قبل أن يتطرَّق الحديث إلى المقالات التي أكتبها في مجلة الشباب، وعن

القانون وضرورة حصولي على موافقات للنشر، وارتبط الحديث بملفٍ كاملٍ لِمَا نشرتُه أحضره السيد(أ)..

كان الجميع محترمين مهذبين، على أعلى درجة من الرقي والاحترام في التعامل، حتى إنني استوعبت الفكرة بسرعة وتفهمت ضرورة خضوع مثل تلك الأعمال للمتابعة نظرًا لما يمكن أن تسببه من مشكلات ومن بلبلة غير مقصودة في أفكار من يقرأها ويتابعها.

ومنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة جديدة من كتاباتي عن الجاسوسية والمخابرات.. مرحلة أكثر تخصصًا وأكثر نضجًا وأكثر خبرة.

وعندما أخبرت صديقي رَجُل الأمن أو (رجل المستحيل) كما أُطلِقُ عليه حتى الآن، ابتسم في ارتياح وقال: (دلوقتي بس اتطمنت عليك).

وبدأت الحياة تتخذ منحنى آخر أكثر استقرارًا وتوازنًا، ورحت أقضي المزيد من الوقت مع الأستاذ (حمدي) في المطبعة وهو لا يبخل عليَّ أبدًا بالنصح والمشورة، ولا يتخلى عنى في أصعب مواقفي، حتى صرت أعتبره الأب الروحي لي، وصارت علاقتنا مضربًا للأمثال ليس في المؤسسة وحدها ولكن في عالم النشر كله..

وكان هذا يسعدني ويريحني للغاية، ولكنه في الوقت ذاته يثير توتر وحقد وغضب العديدين (كما يحدث دائمًا) حتى إنه ذات مرة التقيت بـ (فاروق فلوكس) في المطبعة، وكان يقدِّم قاموسًا مصوَّرًا للنشر، وتعارفنا بسرعة وأبديت رأيي في قاموسه، ولاحظ هو طبيعة العلاقة الوثيقة بيني وبين الأستاذ (حمدي) فقال لي محذرًا وهو يغادر المكان: (خد بالك.. علاقتك بالأستاذ (حمدي) حتتحسد وكتير حيوقعوا بينك وبينه..)..

ولم آخذ حديث فاروق -بجدية- في ذلك الحين، إذ كنت وما زلت أولي أستاذي الأستاذ (حمدي) كل الثقة والاحترام..

ولكن من المؤسف أن دوام الحال من المحال..

وأن ما توقَّعه (فاروق فلوكس) كان له أثرٌ كبيرٌ من الصحة..

فمع مرور الزمن وتطوُّر الأحداث بدأ أسلوب الدس والوقيعة يؤتي ثماره..

وبعنفٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشكلة نشأت مع خطأ مطبعي في إعلان عن صدور رواية جديدة للدكتور (نبيل راغب) تقوم بتوزيعها جريدة الأهرام التي أخطأ جامعُ الحروف فيها، ووضع اسم (فاروق) بدلًا من (راغب)..

وقامت الدنيا ولم تقعد وفوجئت بمن يتصل بي من المطبعة ليخبرني أن الأستاذ (حمدي) غاضبٌ مما حدثَ، ومن أنني قد أصدرت مؤلفاتي في دار نشر أخرى دون الرجوع إليه أو إبلاغه مسبقًا و.. و...

واندهشت بشدة لما حدث..

أولًا لأنني كاتبٌ حُرٌّ رفضت دائمًا أن أعمل موظفًا في أي جهة كانت حتى في إحدى الصحف الكبرى؛ حتى لا أتعرض لمثل هذا الموقف أبدًا، فلم ولا ولن أؤمن أبدًا باحتكار دار نشر واحدة لكاتب ما حتى ولو منحته كل ما يريده من مالٍ أو امتيازات؛ إذ أن هذا يجعله أشبه بقط أليف داخل قفص من الذهب المكسو بالحرير وليس كاتبًا حُرًّا يطلق عقله في كل الاتجاهات ويعبِّر عن رأيه وكيانه حتى ولو عانى الأمرَّين من أجل هذا..

وثانيًا لأن الأمر مجرد خطأ مطبعي لم يحاول مخلوق واحد التيقن منه أو التأكد من صحته فكيف يسفر عن هذا الغضب والموقف الحساس المعقد..

وعلى الرغم من نصيحة المبلِّغين أن أتصل بالأستاذ (حمدي) لإيضاح الأمور، إلا أنني قررت الذهاب إليه مباشرة لمناقشة هذا الأمر..

ومع الأستاذ (حمدي) بعقله الكبير وسماحته العظيمة تُحلّ الأمور كلها دومًا في لحظات؛ لذا فقد انتهت المشكلة بعد ساعة واحدة من حدوثها وعادت الحياة إلى مجاريها، ولكن ليس بصفائها الأول من ناحيتي على الأقل..

ففي طريق عودتي تذكَّرتُ كلمات (فاروق فلوكس) من أن الناس ستحسد علاقتي بالأستاذ (حمدي) وستسعى لإفسادها، فها هي ذي بذرة صغيرة وتجربة محدودة أثبتت إمكانية حدوث هذا..

كنت أتمنى أن تتجاوز الثقة حاجزَ الغضب، وأن يكون عدم التصديق هو ردُّ الفعل الأول للخبر، على الرغم من أنني ما زلتُ أصرُّ على حقي في الكتابة في أي جهة أخرى ما دام هذا لا يتعارض مع كتاباتي في المؤسسة..

وحتى ذلك الحين كان صديقي وأستاذي رجل الأمن يعرف كل شيء تقريبًا عن الأستاذ (حمدي)، في حين لم يعلم الأستاذ (حمدي) بأمره ربما حتى لحظة بداية هذه المذكرات، ولقد شعرت أيامها برغبة عارمة في زيارته ورويتُ له الموقف كله ليجيبني في هدوئه التقليدي: (رد فعل طبيعي جدًّا)..

كان يتحدث عن رد فعل الأستاذ (حمدي)، وليس رد فعلي أنا، ثم بدأ يشرح لي ما يعنيه بهذا، موضحًا أن علاقتي بناشري وأستاذي الكبير لم تعد مجرد علاقة ناشر بكاتب موهوب، وإنما صارت أشبه بعلاقة أب بابنه أو شقيق أكبر بشقيقه الصغير الذي وُلِدَ على يديه والتصق به وراحَ ينهل من أسرار الحياة والعمل..

لذا كان حزنه وغضبه هُما حزن وغضب الأب أو الشقيق الكبير الذي يعِّبر عن صدمته في صغيره عندما يبدأ هذا الصغير في اتخاذ مسارٍ مُستقلٍّ..

وأدهشتني حِكمة الرجل ونظريته العميقة والبعيدة للأمور، وجعلتني أعيد دراسة الموقف كله مرة أخرى من منظور جديد..

وازداد تعلُّقي بالمؤسسة وإصداراتها، وبالأستاذ (حمدي) أكثر وأكثر وأكثر..

وعادت جلساتنا تتوالى لدراسة موقف سلاسل الروايات، وبحث ما يمكن إضافته إليها بعد أن نمت وتطورت وانتشرت وأصبحت معروفة ومطلوبة في العالم العربي كله.

في ذلك الحين كنت قد بلَغْتُ حدًّا مُرهِقًا من قراءة وكتابة أعمال الجاسوسية والمخابرات، وامتلأت مكتبتي بكتبٍ أكثر عنها، وأضيفت إليها بعض الكتب بالفرنسية أيضًا التي بدأت أتعلمها في المركز الثقافي الفرنسي في مصر الجديدة..

ومع دراستي للفرنسية قفزتْ إلى ذهني فكرة السلسلة الجديدة..

وكانت كالمعتاد مختلفة عن كل ما سبقها..

تمام الاختلاف..

ولم أدرك لحظتها أنها ستصبح نقطة تحوُّل جديدة في حياتي كلها..

نقطة تحوُّل خطيرة..

للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن

جمعية حقوق المؤلف، بداية جديدة

السلسلة الجديدة كانت مفاجأة للجميع عند طرحها في الأسواق، فقد كانت سلسلة للأطفال الصغار جدًّا على عكس شريحة الشباب التي اعتدتُ التعامل معها، والواقع أنها لم تبدأ قَط كسلسلة، وإنما بدأت كحكايات قبل النوم التي كنت أرويها لابني (شريف) في طفولته والتي كانت تدور حول نسر صغير أطلقنا عليه أيامها اسم (نسور)، كان لا يمكنه أن يطير إلا إذا تناول طعامًا مغذيًا واستمع إلى نصائح الكبار وتوقف عن الكذب وهكذا.. ولقد ابتكرت الشخصية في ذلك الحين كوسيلة لخَلْقِ مثلٍ أعلى لابني يدفعه إلى التشبث بالعادات الحسنة، ولم يكن (شريف) ينام إلاَّ بعد أن أروي له يوميًّا قصةً من قصص (نسور) الصغير التي نبدأها بأنه في البيضة يطير وهكذا..

وذات ليلة كنا معًا في (المعمورة) عندما سمعني الناشر أروي الحدوتة لابني، فسألني لماذا لا أحوِّلها إلى مجموعة قصصية للأطفال..

ومع الزمن وخشية أن يحاول (شريف) الطيران فعلًا، تحوَّل (نسور) إلى كتكوت صغير حمل اسم (كتاكيتو)، وصدر بالفعل في سلسلة ملوَّنة للأطفال حقَّقَتْ مبيعاتٍ كبيرةً في حينها، ولكنني توقفت عن كتابتها إثر خلافٍ حول نِسَب مبيعاتها التي أشعرتني أن ناشرها نفسه لا يشعر نحوها بالاحترام الكافي..

ولكن (كتاكيتو) جذبَتْ انتباه الآخرين الذين سعوا لتحويلها إلى فيلم رسوم متحرَّكة، ثم إنتاجه وتسويقه بالفعل ليفتح عينيّ على مجالٍ جديدٍ..

مجال السينما والتليفزيون..

ومنذ ذلك الحين انطلق في عقلي سؤالٌ هامٌّ جدًّا: لماذا لا أسعى لتحويل (رجل المستحيل) إلى فيلم سينمائي.

وفي الوقت الذي رحت أكتب فيه أول سيناريو في حياتي بكل الحماس والنشاط والهمة لأوَّل عملٍ أردته أن أقدِّم به (رجل المستحيل) على شاشة السينما بعد النجاح الواضح لروايته وانتشارها ظهرت بوادر الخلاف الرئيسي بيني وبين دار النشر، والذي لم ينتهِ بَعدها قَطّ..

كان خلافًا عجيبًا حول ملكية الشخصيات، وأفكار وإبداعات الروايات!!..

فعَلى الرغم من وجود قانون حاسم يحمي الملكية الفكرية وحقوق المؤلف، ومن أن المؤسسة قد أقرَّت بنفسها في طلبها لرقم الإيداع أنني مؤلِّف كل ما

تنشره من أعمال، ومن أنني لم أتنازل قَطّ عن أي حقوق على النحو الذي يُحتمه ذلك القانون في مادته رقم (١٤٩)، والتي تشترط أن يكون التنازل مكتوبًا وأن يحوي مدى التصرف والغرض منه ومدة استغلاله ومكانه، هذه المادة التي تعتبر أن المؤلف مالكًا لكل ما لم يتنازل عنه صراحة، وأن ترخيصه بأحد الحقوق لا يُعَدّ ترخيصًا منه باستغلال أي حقٍّ آخر، إلا أن الكل كان يتعامل باعتباره صاحب الحقوق وليس أنا..

والمشكلة بدأت بعبارة في «ترويسة» الروايات تعطي هذه الحقوق للناشر دون وجه حقٍّ، وحاولت أنا تجاوُز هذا باعتبار أن ما بُنيَ على باطل فهو باطل، إلا أنني فوجئت بتمادي الأمر إلى درجة الشروع في التعاقد على بيع حق استغلال مؤلفاتي لإحدى الجهات الإذاعية دون حتى الرجوع إليَّ!!..

وهنا كان لا بُدَّ من المواجهة، ومن توضيح الأمر وتأكيده، والإعلان بوضوح أنني صاحب الحقوق وِفقًا للقانون وليس المؤسسة..

وفوجئت بموجة عنيفة من الغضب، وبمنطق صدرَ القانون خصيصًا لمواجهته؛ ألا وهو شعور الناشر بأن نقوده وليس فكر المؤلف هو سِرُّ نجاح وانتشار أي عمل أدبي أو علمي..

والمنطق معكوس على نحوٍ عجيبٍ، وإلا لحصل ناشر كتاب (النسبية) على جائزة (نوبل) وليس (ألبرت أينشتين)، ولانشغلت الدنيا كلها بناشر كتاب (أصل الأنواع) ونسيت (تشارلز داروين)، أو لحصلت مكتبة (مصر) على الجائزة التي رفع بها (نجيب محفوظ) رأس مصر والعالم العربي كله.

وشعور المؤسسة بهذا لم يكن عجيبًا؛ لأن القانون أدرك الموقف وصدرَ لمواجهته، ولكن المشكلة التي عانيت منها طويلًا هي مناقشة القضية نفسها في كل مرة يسعى فيها شخصٌ ما أو تحاول جهة ما استغلال الشخصيات أو الروايات..

فذات مرة، أرادت إحدى شركات الرسوم المتحركة تحويل سلسلتيّ (رجل المستحيل) و(ملف المستقبل) إلى أفلام كارتونية، وأخبرهما المسؤولون في المؤسسة أن الموافقة من حقِّهم وحدهم، بل وبدأوا التفاوض بالفعل في هذا الشأن لولا أن علمت بالمصادفة البحتة ومن خلال أصحاب شركة الرسوم المتحركة أنفسهم، الذين أرادوا التأكد من أنني قد تنازلت عن هذه الحقوق للمؤسسة.. وهو ما لم أفعله قَطّ..

وكانت مواجهة ثانية انتهت بإيقاف المشروع كله بعد أن خشيَتْ الشركة أن تتورط في خلاف بين الناشر والمؤلف..

وغضبتُ بالطبع لأن ذلك الخلاف أصبح يعيق طريقي، ونصَحني البعض باللجوء إلى القانون والقضاء لضمان حقوقي، إلا أن الفكرة بدت لي بشعة ومخيفة وغير قابلة للتنفيذ، وخاصة مع المؤسسة التي بدأت منها انطلاقتي.. وتجاوزتُ الأمر بحوارٍ مباشرٍ، ووضع النقاط على الحروف وتصوَّرت أن المشكلة قد انحسمت وانتهت..

حتى ظهرت فكرة النشر عبر شبكة الإنترنت..

وهنا اشتعلت الحرب..

وبمنتهى الشراسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فذات يوم زارني (أحمد) وهو شاب طموح متحمس، يتابع الروايات منذ زمن طويل، ويحمل مشروعًا رائدًا في ذلك الحين ألا وهو نشر الروايات إليكترونيًا على شبكة الإنترنت لخلق جيل جديد من قرِّائها ونشرها على نطاق عالمي..

ولأنني أردتُ حلَّ المعضلة دون خسائر كبيرة؛ فقد توصَّلت مع الناشر في النهاية إلى اتفاق (جنتلمان) يتم بموجبه نشر أعمال جديدة عبر شبكة الإنترنت، بحيث لا تنشر الأعمال المطبوعة عبرها والعكس بالعكس..

وهدأت العاصفة واتضحت الأمور (أو أن هذا ما تصوَّرتُه) وبدأت عملية النشر عبر شبكة الإنترنت من خلال شركة أخرى..

وفي معرض الكتاب ظهرت الصورة واضحة، عندما استأجرت الشركة الخاصة بالنشر الإليكتروني جناحًا، أعلنت فيه عن الامتياز الذي حصلت عليه منذ عام كامل لنشر الروايات عبر شبكة الإنترنت..

وهنا فوجئت بهجومٍ شَرسٍ عنيفٍ..

هجوم تجاوز كل الحدود وكل المقاييس..

ومع الهجوم أصابتني صدمة عنيفة للغاية من اتجاه آخر..

اتجاه لم أتوقعه قَطّ.

مات (إسماعيل دياب).. توفى فجأة الفنان المبدع الذي ساهم بأغلفته الجذَّابة في نجاح تلك السلاسل القصصية طوال أكثر من عشرين عامًا..

ولستُ أدري ماذا أصابني بالضبط مع وفاة الأستاذ (إسماعيل)؛ فقد شعرت فجأة أن الأمور لن تعود أبدًا كما كانت.. أو أن مرحلة جديدة لا بُدَّ وأن تبدأ حتمًا في الأيام القادمة..

ومع وفاة صديقي العزيز الأستاذ (إسماعيل)، بدأتُ البحث عن رسَّامٍ آخر ليكمل مسيرة السلاسل، ونشرت المؤسسة إعلانًا بهذا الشأن، وضعَتْ فيه أسماء رواياتها وتحدَّثت لأوَّل مرة عن موقع تعتزم إنشائه لنشر كل ما لديها من روايات (رواياتنا)!!..

وهنا انتقل الصراع إلى مرحلة جديدة..

مرحلة وجدَ فيها الآخرون أرضًا خصبة لما كانوا ينتظرونه منذ أمد طول لإفساد العلاقة بيني وبين الناشر..

ولم أعش في حياتي كلها حزنًا يساوي ذلك الحزن الذي عشته أيامها؛ فقد كان عليّ ولأوَّل مرة أن أختار بين صداقة استمرت عقدين من الزمان، وحقوق ستبقى طيلة عمري، وسيتمتع بها ورثتي لخمسين عامًا بعد وفاتي -كما ينص القانون-.

بين مشاعري الشخصية وتفكيري العملي الذي سيحاسبني عليه أبنائي يومًا ما حتمًا عندما يسألونني أو حتى يتساءلون بعد موتي كيف حرَمْتُهم من حقوقهم بسبب صداقة لم تصمد حتى أمام غضبٍ مؤقتٍ أو وشايات حقيرة..

ومع أحزاني، استشرت صديقي رجل الأمن الذي ازداد حكمة وهدوءًا مع الزمن، والذي استمع إليَّ طويلًا في صمتٍ، وطالَ صمتُه بعد أن انتهيت من روايتي، ثم قال بمنتهى الهدوء: (مشكلة نجاح.. العمل الناجح ليه ألف أب لكن مافيش ارتباط ناجح إلا لو كل طرف فيه خد حقوقه بالكامل..)..

ومنذ حداثتي لم أقبل أو أخضع قَطّ لأي منطق تخاذلي أو استسلامي، ولم أخشَ ضياع الرزق أو فقدانه لإيماني الشديد بأنه يأتي من خالقٍ يفوقني ويفوق جبابرة العالم جميعهم..

ثم إنه لديَّ مقولة أعتمد عليها دومًا وهي أنك تملك كرامتك، ولا تملك رزقك، والحماقة كل الحماقة أن يتنازل المرء عمَّا يملك في سبيل ما لا يملك..

وربما كانت هذه أصعب عقبة واجهَتْ (رجل المستحيل) في مساره الطويل الذي بلغ سن الرشد مع كتابة هذه السطور، بعد واحد وعشرين عامًا من الكفاح.

فمن قبلها كانت هناك عقبات ومواجهات عديدة، ولكن أهمها جاء في انتقاله من عالم الورق إلى عالم شاشة السينما..

وقد كان انتقالًا عسيرًا للغاية..

ففي عام ١٩٩٩م أقنعني الصديق الموسيقار والمخرج (أيمن أبو يوسف) بكتابةٍ فيلم لرجل المستحيل، ولقد أفزعتني الفكرة في البداية، وترددت

طويلًا فيها، ثم لم ألبث أن اقتنعت ورحت أكتب سيناريو الفيلم في حماسٍ شديدٍ، وانتهيت منه في وقت قياسي، وتصورَت أن هذا يكفى إلا أن (أيمن) أخبرني أنها مجردة بداية، وأن المهم هو العثور على منتج لتمويل الفيلم، وبسرعة أحضر منتجًا متحمسًا، وبدأ يبحث عن وجه جديد للقيام بدور البطولة، ووقع اختياري أيامها على النجم حاليًا، ورجل السياحة أيامها (أحمد عز) وقمت بتقديمه لقرائي بالفعل في ندوة أقيمت عن الفيلم، واستقبلوه بشكل جيد جدًّا، وبدأتُ في اتخاذ الإجراءات الفعلية، ومنها وموافقة المخابرات التي استغرقت عامًا كاملًا، انتهى بمفاجأة لم تكن نتوقعها قَطُّ..

المنتج تراجع عن فكرة إنتاج الفيلم.. هذه هي المفاجأة التي تلقيناها جميعًا بعد أن حصلنا على الموافقات اللازمة وتصوَّرنا أن المشكلة قد انتهت..

وكانت صدمة لنا جميعًا.. المخرج و(أحمد عز) وأنا..

ولكنها لم تكن نهاية العالم..

ففي لهفة، حملنا السيناريو الذي تم اعتماده من جهاز المخابرات العامة والرقابة على المصنفات الفنية ورحنا ندور به على شركات الإنتاج في فترة لم تكن مِصر قد أنتجت خلالها فيلمًا حربيًّا واحدًا..

وفي كل شركة كنا نواجه مشكلتين لا ثالث لهما، أوَّلهما أن أحدًا لا يرغب في إنتاج فيلم حركي، وثانيهما أن أحدًا من منتجي السينما لم يكن قد سمع قَط عن (رجل المستحيل) هذا..!

وحتى عندما كنت أخبرهم أنهم يتعاملون مع شخصية روائية ناجحة لها ما يقرب من تسعة ملايين قارئ في كافة أنحاء الوطن العربي، كانوا يتصورون أن هذا مجرد تحسين بضائع وليس حقيقة أكدتها جريدة الأهرام نفسها ذات مرة..

وبدأت أشعر بحالة من اليأس والإحباط، وبضيقٍ من لعبة الدراما كلها، حتى إنني قررت إهمال أمر الفيلم تمامًا ونسيان حتى أنني قد أقدمت على كتابته يومًا..

والمدهش أن هذا القرار قد أراحني كثيرًا وأعادني إلى مسار حياتي العادي الذي آلفه وأرتاح إليه..

وعدتُ أقرأ كتب الجاسوسية والمخابرات في نهمٍ وأستزيد من هذا العالم الغامض بكل سحره وإبهاره، حتى تحوَّل إلى مصدر بحثي الأوَّل، وخاصة عندما أضفت شبكة الإنترنت إلى مكتبتي الضخمة..

أما المخرج (أيمن أبو يوسف) فقد ظل يقاتل في استماتة ليمنح الفيلم فرصة للظهور باعتبار أنه أمله الأوَّل في الانتقال من عالم الغناء إلى عالم الإخراج.

وفي لقاء لي مع (رجل المستحيل) الحقيقي بعد أن قلّت لقاءاتنا كثيرًا فوجئت به يسألني في اهتمام عن مصير الفيلم فرحت أروى له الأمر كله وكلماتي تحمل روح المرارة التي أشعر بها في أعماقي ولكنه استمع إليَّ في هدوء شديد ثم ابتسم في رصانة قائلًا: (ما تستعجلش.. كل شيء بأوانه.. والموضوع مش مجرد فيلم.. ده حالة جديدة وصعب الناس تفهمه زيك)..

لم أفهم عبارته في البداية ولكنني لم أحاول سؤاله عما تعنيه أو حتى مناقشته في مضمونها ربما لأن حالة الإحباط في أعماقي كانت فوق رغبتي الدارجة في المعرفة والفهم.

ولكن الأيام التالية جعلتني أفهم ما كان يعنيه وأستوعبه جيدًا..

ففجأة وبعد أن بلغ بي اليأس مبلغه فوجئت بالمخرج يتصل بي ويخبرني أنه قد حدَّد موعدًا مع شركة إنتاج كبيرة كانت شديدة التألق في ذلك الحين.. كان يتوقَّع منى فرحة طاغية إلا أنه فوجئ بتحفظي الشديد الذي استفزه بشدة فهاجمني بعنف إلا أنني لم أستطع.. لسببٍ ما - التفاعل مع الموقف وكأنما أصابني اليأس من الموقف كله..

ولكنني وافقت على إجراء المقابلة، وذهبت مع المخرج إلى شركة الإنتاج وهو يحذرني طوال الطريق من حسم التعاقد في المقابلة الأولى، وينصحني بأن تكون مقابلة تعارف فحسب..

لم أفهم لماذا إصراره على هذا، إلا أنني -ولنقص خبرتي في هذا المجال- أطعت ما طلبه والتقيت بأصحاب شركة الإنتاج الذين أشادوا بالسيناريو، وكانوا مستعدين للتعاقد عليه فورًا، إلا أنني وبناءً على نصيحة المخرج لم أحسم الأمر وانصرفت دون توقيع العقد..

ويبدو أن هذا الموقف قد استفز أصحاب شركة الإنتاج بشدة وأنه جعلهم يتصورونني مغرورًا متعاليًا فتحوَّلت تعاملاتهم معي من الإقبال إلى التحفظ حتى عندما وقَّعْنَا العقد بالفعل وقد فتر حماسهم إلى حدٍّ ما..

وعلى الرغم من هذا، فقد بدأت الاستعدادات لإنتاج الفيلم..

مناقشات وجلسات عمل وتعديلات ووعود..

ثم فجأة توقَّف كل شيء دون مقدمات..

أو أنه كانت هناك مقدمات لم أنتبه إليها في حينها، إذ أخبرني المخرج ذاتَ يومٍ أن الشركة تتجاهله تمامًا، ولا تحاول التعاقد معه أو دفع عربون بداية

عملَ..

وبعدها بدأ أصحاب الشركة يتهربون من اتصالاتي، ويقدِّمون أعذارًا واهية مقابل هذا..

وتوقفت أنا عن الاتصالات بدوري لتواجهني بعدها مفاجأة..

مفاجأة لم أتوقعها قَطّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرة أخرى تلقَّى فيلم (رجل المستحيل) صدمةً إنتاجيةً..

فعلى الرغم من تعاقد شركة الإنتاج معي، وبدء جلسات العمل بالفعل مع المخرج، قرَّرت الشركة التوقف فجأة عن إنتاج الفيلم، وقامت بإنتاج فيلم حركي آخر!!..

ولأن مؤلف الفيلم الآخر هو أحد أصحاب الشركة، لم يعد هناك مجال للمناقشة أو المجادلة أو الاعتراض!!..

وهنا توقفت تمامًا عن فكرة إنتاج فيلم (رجل المستحيل) وقرَّرت عمليًا طرح الأمر خلف ظهري حتى يظهر منتج آخر يدرك مدى شعبية وانتشار الشخصية، وما يمكن أن يجلبه له هذا من أرباح..

ولست أدري لماذا شعر صديقي رجل الأمن بارتياحٍ شديدٍ عندما أخبرته بهذا، وفوجئت به يقول بابتسامة كبيرة: (كل شيء نصيب.. وبصراحة.. أنا بأحب الكتب أكتر م السينما)..

أردت يومها أن أخبره أنني أعشق المجالين معًا، وأنه كما وأن مكتبتي تضمُّ ما يزيد عن عشرة آلاف كتاب (على الأقل)، فهي تحوى أيضًا كمًّا هائلًا من أفلام الفيديو وأسطواناته وشرائط الكاسيت الموسيقية ربما تبلغ الآلاف أيضًا، وتضم تاريخ السينما العالمية كله تقريبًا، مع معظم السيمفونيات لمشاهير الموسيقيين..

ولكنني، ولسبب ما، أخفيت هذا في أعماقي وقرَّرت الاحتفاظ به لنفسي (أيامها) باعتبار أنه أمر شخصي بحت..

ولكن تأثُّري بالتجربة انعكس أيضًا على ذوقي في اختيار مصادر معلوماتي..

فبعدها أضيفت إلى مصادري أفلام السينما والأفلام التسجيلية أيضًا..

وعبر السنوات القليلة التي تلت هذا، اكتظت مكتبتي بعددٍ كبيرٍ من أفلام الجاسوسية..

أفلام روائية قديمة وحديثة وخيالية ووثائقية أيضًا..

وبنفس النهم الذي بدأت به القراءة في هذا العالم، رحت أنبش عن أفلام جديدة أو نادرة في هذا المضمار..

وتوصلت إلى حقيقة هامة جدًّا..

عالم المعلومات لا ينضب قَطّ، مهما قدرت مصادره..

فكل فيلم أشاهده كان يضيف إليَّ حتمًا معلومة جديدة..

لمحة جديدة..

أسلوبًا مبتكرًا..

فكرًا مختلفًا..

ورحت أتساءل: كم تبلغ إذًا معارف وخبرات رجل المخابرات المحترف، لو أنني (كدارس) أستزيد بفيض منها كل يوم دون أن ينضب نبعها أبدًا؟!..

طرحت السؤال على صديقي (رجل المستحيل)، فابتسم قائلًا: (صعب جدًّا تعرف خبراتك وصلت لإيه إلا لما تواجه تجربة حقيقية!..)..

وبينما يجيب تساؤلي، أدركت أنني أعرف الجواب بالفعل، ولكنه ضلّ طريقه في تلافيف عقلي مع موجة الاعتياد التي تفسد حياتنا كلها..

لقد اعتدت التعامل مع صديقي وأستاذي، حتى لم أعد أنتبه إلى خبراته اللا محدودة في كل مجالات الحياة تقريبًا..

في تعاملاته، وعلاقاته، وحياته، وحتى في قيادته لسيارته..

إنه بارع في كل ما يفعله، دقيق، حكيم، نابه، هادئ، واثق..

وكل هذا حتمًا نتاج خبرة طويلة كبيرة متميزة للغاية.

كنت أتطلَّع إليه في انبهارٍ شديدٍ عندما أدركت أو استعدت، هذا مما جعله يبتسم ويسألني عمَّا أمرُّ به، وهنا وجدتُ نفسي أهتف بكل الحماس: (عايز أكتب عملية من عملياتك الحقيقية)..

بدت عليه الدهشة لحظة، ثم قال في هدوءٍ: (لو وافقوا ماعنديش مانع)..

وبقوله هذا فتح أمامي بابًا لم أفكّر في عبوره من قبل قَطّ..

وأسال لعابي له بشدة..

أريد بالفعل الانتقال بكتاباتي من عالم مغامرات الجاسوسية إلى عالم الجاسوسية الحقيقية..

عالم الصراع الفعلي.. صراع العقول والخبرات والذكاء..

وفي الوقت الذي بدأت فيه السعي لهذا، استضافني الزميل (إبراهيم عيسى) في عدد من البرامج التليفزيونية التي تتحدَّث عن عالم المخابرات..

ووجدت نفسي أنتقل بالفعل إلى مرحلة جديدة..

مرحلة سيتطوَّر خلالها (رجل المستحيل) حتمًا..

وإلى الأبد..

وكان أول هذا التطوير هو قراري بالتوقف عن كتابة السلسلة..

وعلى الرغم من اعتراض القراء على هذا بدأت بالفعل كتابة الأعداد الأخيرة من سلسلة (رجل المستحيل)..

وتم طرح الرواية رقم مائة وخمسين بالفعل، حاملة عنوان (النهاية)..

وفي الفصل الأخير منها لقي (أدهم صبري) مصرعَهُ وهو يدافع عن أمن وسلامة (مصر).

وتفجَّرت موجة من الغضب بين شباب الوطن العربي كله..

موجة لم أتوقعها أو أتصوَّر قوتها وتأثيرها..

قَطّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الأمور التي اعتدناها في عالمنا العربي أن الهزيمة يتيمة، والنصر له ألف أب، أي أن الأعمال الفاشلة يتبرأ منها الكل، أما الأعمال الناجحة فالكل يسعى إلى نسبها لنفسه واقتناص أقصى ما يمكنه من مكاسبها وأرباحها ونتائجها، وربما أكثر من أصحابها أنفسهم..

وهذا ما واجهني طيلة عمري في رحلتي مع (رجل المستحيل) بالتحديد..

فعلى الرغم من أن عدد المطبوعات التي تحمل اسمي قد بلغ حتى لحظة كتابة هذه السطور، حوالي خمسمائة وثلاثين عملًا إلا أن أبرزها وأنجحها كان دومًا سلسلة (رجل المستحيل)..

وعلى عكس أي دولة أخرى أو أي شخصية روائية تسلسلية ناجحة في العالم أجمع، وعبر التاريخ كله، كان هذا النجاح وبالًا دائمًا عليَّ..

ففي كل مرة يسعى فيها أحدهم إلى إنتاج فيلم أو مسلسل أو حتى عمل من أعمال الرسوم المتحركة عن الشخصية، كان يطالبني دومًا بالتنازل عن كافة حقوق ملكيتها مقابل هذا الإنتاج!..

ولم أفهم قَطّ هذا المنطق العجيب، خاصة وأن تبريره الدائم كان أنه لو نجحت الفكرة فلا أحد لديه استعداد لأن يتم إنتاجها فيما بعد غير سواه.

وهكذا كان الكل يفكِّر في حقوقه (المزعومة) متناسيًا تمامًا أنني صاحب ابتكار وتنفيذ الشخصية، وصاحب الحقوق الفعلية والقانونية والشرعية أيضًا..

فهذا يبدو أشبه بشخصٍ أنجب طفلًا، ثم جاء من يتعهد هذا الطفل برعايته ودفعه للعمل لحسابه ليَربح منه الملايين، وعندما أصبح الطفل ناضجًا، وأشبه بالدجاجة التي تبيض ذهبًا، رفض راعيه أن يعيده إلى والده الشرعي بحجة أنه الذي علَّمه وربَّاه، وينسى تمامًا أنه أكثر مَنْ استفادَ منه ماديًّا..

فالمعادلة عادلة تمامًا.. الكاتب يَملك أكثر مما يربح، والمنتج (أيًّا كان) يربح أكثر مما يملك..

وبسبب هذا الفكر العجيب المستند فقط إلى طغيان المال، وجبروت سطوته تعطل مشروع تحويل (رجل المستحيل) إلى دراما مرئية أو مسموعة لسنواتٍ وسنواتٍ وسنواتٍ..

ففي كل مرة كنت أرفض التنازل عن حقوق الشخصية مهما كان الثمن أو كان المقابل أو كانت التهديدات..

ولكن المحاولات لم تتوقف قَطّ..

فكُلُّ مَن يربح من الشخصية سعى للاستيلاء عليها، وسعى لتقييدي إليه؛ بحيث يلغي إرادتي ويحولني من كاتبٍ حُرٍّ إلى أداة الربح الحادة وإنتاج أكبر قدرٍ مُمكنٍ من الأعمال الرائجة..

ومن حسن حظي أن هناك قانونًا رائعًا لحماية الملكية الفكرية، افترض منذ وضعه أن الكل سيسعى إلى الاستيلاء على الأفكار الناجحة اعتمادًا على سطوته المالية أو نفوذه السياسي؛ لذا فقد وضع بعض القواعد الصارمة لضمان حفظ حق الملكية الفكرية لصاحبه..

فالعقود التي يتم إبرامها بين مُبتَكِر ومنتج أو مؤلف وناشر، تخضع لشروط حاسمة وهي حتمية أن تكون مكتوبة وصريحة، وأن ينص فيها صراحة على الحقوق، ومدى استخدامها، ومدة هذا الاستخدام، وغيرها من الأساسيات التي يعتبر القانون أي عقودٍ لا تلتزم بها باطلة بحكم مواده المباشرة.

وحماية لمستقبل المبدع أيضًا نَصَّ القانون صراحةً على أنه لا يجوز التعاقد معه على أعماله المستقبلية بأيِّ حالٍ من الأحوال، واعتبرَ أيَّ نصٍ يُشير إلى هذا باطل بطلانًا مطلقًا حتى ولو أقر به المبدع والمنتج وتم تسجيله في الشهر العقاري..

أما في حالة الأعمال المتسلسلة مثل (رجل المستحيل)، فقد اعتبرَ القانون كل عمل منها حالةً مستقلةً لا بُدَّ من صدور تصريح كتابي بنشرها، وإلا اعتُبِرَ النشر باطلًا..

القانون إذًا كان يحميني ويحمي كل مبدع منذ اللحظة الأولى، إلا أنه من العجيب أن تسعين في المائة من المبدعين يجهلون بنوده تمامًا، وكذلك مائة في المائة من الناشرين والمنتجين، والأدهى أن مواده تخفي على عدد كبير من كبار المحامين أيضًا الذين يتعاملون مع الملكية الفكرية باعتبارها نزاعًا مدنيًّا قابلًا للتحايل والضمنيات وإبقاء الحال على ما هو عليه!!!...

ومن المصادفات العجيبة أن المجلة التي نشرت أول إعلان تقدمت عبره لكتابة أعمال كانت تحوي مقالًا تفصيليًا عن حقوق المؤلف ضمن حقوق الملكية الفكرية، ويوضح مبطلات العقود وأسبابها وجهل معظم المحامين (الكبار) بها..

ولأنني كثيرًا ما واجهت تلك المشكلات والعقبات فقد توقفت - كعادتي - لدراسة الأمر، وراجعته مع محاميَّ الخاص قبل أن تخطر ببالنا فكرة جديدة.. للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع جهل العديدين لحقوق المؤلف في قانون حماية الملكية الفكرية، راودتني فكرة إنشاء جمعية خاصة لحقوق المؤلف تتولى عنه توقيع عقوده مع الناشرين وتبصيره بحقوقه، وما يبطل تعاقداته من تجاوزات أو محاولات هيمنة أو احتكار..

ولأنني واجهت محاولة شرسة للاستيلاء على حقوق ملكيتي لأعمالي، ونتاج فكري وعمري، كنت شديد الحماس لإنشاء مثل هذه الجمعية التي كان ينبغي أن يقوم بعملها اتحاد الكتاب نفسه باعتباره الجهة التي تحمي.. أو المفترض.. أن تحمي حقوق الكُتَّاب..

وبدأتُ بالفعل في إنشاء الجمعية، وفي لقاء لي مع الفنانة التونسية المثقفة (جدًّا) (هند صبري) طرحتُ الفكرة لأفاجأ بأن رسالة الماجستير التي قدمَتْها كانت حول حقوق الملكية الفكرية أيضًا مما جعلها تبدي حماستها للانضمام إلينا..

وبدت أشبه بنواة جيدة لجمعية تحمي حقوق الملكية الفكرية..

وحقوق كل مبدع، وبالذات المؤلفين..

ولقد اعتدت حالة السلبية المطلقة التي تُسود مجتمعنا بكافة اتجاهاته تجاه الحقوق والواجبات فلا أحد يسعى لمعرفة حقوقه أو يرغب في خوض قتالٍ شرسٍ للفوز بها..

وعندما تنشأ الجمعية وتستقر، ستبدأ عملها إن شاء الله بدورة كاملة عن حقوق المؤلف لكل أعضائها..

ولعلَّها تكون بدايةً لعهدٍ جديدٍ..

مرحلة سينضج خلالها حتمًا (رجل المستحيل) وسيتخذ منهجًا جديدًا..

وأكثر استقرارًا..

ونجاحًا بإذن الله..

ولعلَّ هذه البداية الجديدة هي أفضل ما يمكن أن أختم به نهر الذكريات في هذه المرحلة من العمر..

ذكريات (رجل المستحيل)..

وأنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

البـدايـة

ارتفعت سارينة سيارة إسعاف قوية، تشق طريقها عبر شوارع العاصمة البريطانية (لندن)، في سرعة تشف عن أهمية وحساسية الهدف، الذي تسعى إليه، وأفسحت لها السيارات الطريق، على الرغم من ازدحامه، حتى توقفت أمام مبنى السفارة المصرية، حيث استقبلها السفير شخصيا، وهو يقول في لهفة شديدة التوتر: - أسرعوا بالله عليكم.. الإصابة خطيرة للغاية.

سأله أحد مسعفي السيارة، وهو يهرع إلى حيث أرشده مسئولو الأمن: - أهي حادثة سير، أم...؟

قاطعه السفير، قبل أن يتم سؤاله، وهو يجيب، في توتر بلغ منتهاه: - بل هي محاولة اغتيال.. محاولة حقيرة.

كان من الواضح أن المصاب شخص شديد الأهمية، إذ تحرك جميع من في السفارة، في اضطراب ملحوظ، وتعاونوا في نقل الرجل، الذي أصابته ثلاث رصاصات في ظهره، إلى محنة الإسعاف، وبدا وكأن نشاط الدنيا كله قد دب في أجسادهم، وهم يسرعون به إلى السيارة، التي وثب إليها أحدهم، وهو يقول في حزم صارم، وبلهجة توحي بأنها لا تقبل النقاش: - سأرافقكم.

ومع لهجته، وأمارات الإصرار، التي انحفرت بمنتهى الوضوح والشدة على وجهه، لم يحاول أحد المسعفين مناقشته، وإنما بدءوا في إجراء إسعافاتهم الأساسية بالفعل، والسيارة تنطلق، نحو أقرب قسم لجراحات الطوارئ..

وداخلها، سعل المصاب، وتناثرت الدماء من بين شفتيه، وهو يتمتم في صعوبة شديدة: - (حسن).. (أدهم) يا (حسن).. (أدهم) و(أحمد).

أمسك (حسن) كفه المرتجفة، وارتفع حاجباه في تأثر، وقاوم دموعه في صعوبة، وهو يغمغم: - اطمئن يا (صبري).. اطمئن.. كل شيء سيسير على ما يرام بإذن الله.

نطقها، وذهنه يقفز بضع سنوات إلى الوراء..

إلى ذكريات البداية..

أو ما بدا له أنه البداية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"خطأ يا (حسن).. خطأ.."..

كانت أشهر قليلة قد مضت، على إنشاء أقوى جهاز أمن، في (مصر) كلها، عندما هتف (صبري) بالعبارة، في غضب واضح، جعل رفيقه (حسن) يقول في بطء، محاولاً تهدئة انفعاله: - لا توجد أخطاء يا (صبري).. إننا في البداية، ومن الطبيعي أن نكتسب الخبرة من تجاربنا ومواجهاتنا.

أشار (صبري) بيده، قائلاً:

- وهذا ما أعنيه بالضبط... أن نستفيد من تجاربنا.. لقد خسرنا هذه الجولة؛ لأن (أنور) لم يكن يجيد الفرنسية، و(ثروت) لم يجر بالسرعة اللازمة، للحاق بالسيارة، و(جلال) لم يتلق دراسات كافية، للتعامل مع أجهزة الترانزستور.. ثم إن عددنا كان أكبر من القيام بمهمة كهذه.

هز (حسن) كتفيه، قائلاً:

- الأمر تمت دراسته بدقة كافية، ولا يمكنك أن...

قاطعه (صبري)، وقد بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- وفقا لإمكانيات الأفراد.

توقف (حسن)، ومال نحوه، متسائلا:

- عفوا!

استدار إليه (صبري)، إلا أنه بدا وكأنه لا يراه، وهو يقول في حماس: - لقد درسنا الأمر، وفقا لما نعرفه عن إمكانيات المشاركين في العملية، وهذا يقودنا إلى نتيجة هامة للغاية؛ فلو أردنا أن نتطور، فلابد وأن نسعى إلى رفع كفاءة الأفراد بالدرجة الأولى.

حاول (حسن) أن يبتسم، وهو يقول:

- أظننا نسعى إلى هذا طوال الوقت.

بدا (صبري) شاردا، كما لم يكن قط من قبل، وهو يتحرك في حجرة مكتبه، قائلاً في حماس: - ليس بما يكفي.. أو ليس كما أحلم به.. إننا نحيا في عالم وحشي عنيف، وبعد حرب عالمية، أنجبت قوى عظمى جديدة، تتباهى بعلومها وتكنولوجيتها، وثرواتها الهائلة، التي تمنحها قوة تقنية رهيبة، ووسيلتنا الوحيدة للتفوق عليها، في حربنا السرية هذه، ستكمن حتما في الأفراد.. في السلاح البشرى وحده.

وتحول حديثه إلى انسياب حالم عجيب، وهو يحرك كفيه في الهواء، متابعا بابتسامة شاردة: - إنني أحلم برجل مخابرات فائق.. رجل يمكنه أن يجيد أكبر قدر من المهارات والخبرات.. رجل قوى، زكي، جرئ، مبدع، موهوب.. رجل

يمكنه أن يتحدث عدة لغات، بطلاقة تامة، ويتعامل مع الأسلحة، كما يتعامل الأديب مع قلمه، بدقة وتمكن وثقة.. رجل يمكنه أن يقوم وحده، بعمل فريق كامل، و.....

"مستحيل..!!..".

قاطعته كلمة (حسن)، وانتزعته من أفكاره الحالمة، فاستدار إليه، قائلاً في حدة: - لا يوجد مستحيل!

أشار (حسن) بسبابته، وهو يقول في حزم:

- أنت تعلم أن هذا ما نؤمن به في عالمنا وعملنا، ولكن هناك حدود لما يمكن أن يكتسبه أي إنسان، من قدرات ومهارات وخبرات.

هتف (صبري) في حدة:

- ولِم لا؟!

ارتفع صوت (حسن)، وهو يقول في إصرار:

- لأنه بشر.. ولأن العمر لا يكفي لاكتساب كل المهارات.

وبدا وكأن الجواب قد صدم (صبري)..

وبمنتهى العنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت الإجراءات بسرعة شديدة، فور الوصول إلى المستشفى، الذي استعدَّ فيه فريق جراحات الطوارئ، قبل حتى وصول سيارة الإسعاف، وخلال دقيقة واحدة، تم نقل (صبري) إلى حجرة عمليات الطوارئ..

كان قد فقد الكثير من الدماء، منذ أصابته تلك الرصاصات الغادرة، وحتى وصل إلى المستشفى..

وهذا يزيد من دقة حالته وحساسيتها..

إلى حد كبير..

وبكل توتر الدنيا، وقف (حسن) عند باب حجرة عمليات الطوارئ، وقد أغلق عينيه، وراح يتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) أن يبقى على رفيق عمره، وصديق عمله وشبابه..

كان الأطباء قد قدروا الوقت، الذي ينبغي أن تستغرقه جراحة كهذه، بساعتين على الأقل، وكان هو يعلم أنهما ستمران عليه أشبه بدهر كامل..

وعندما ارتكن بظهره إلى الجدار، وثب إلى ذهنه اسم واحد..

(أدهم)..

ابن (صبري) الأصغر، وتجربته المدهشة الفريدة..

التجربة التي أراد بها أن يقهر المستحيل..

كل المستحيل!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"لقد وجدت الحل..".

نطقها (صبري) في حماس، بعد حديثهما السابق بأسبوعٍ واحد، وهو يقتحم مكتب (حسن)، الذي ابتسم، وتراجع في مقعده، متسائلاً: - أي حل هذا؟!.. قضية جديدة؟!

هز (صبري) رأسه في حماس، وهو يميل نحوه، قائلاً:

- بل الوسيلة.. وسيلة صنع رجل المخابرات المثالي.

ارتفع حاجبا (حسن)، وهو يهتف في دهشة:

- أما زلت تفكر في هذا الأمر؟!

أشار (صبري) بسبابته، قائلاً في حزم:

- لم أنسه لحظة واحدة.

ثم استدرك بنفس الحماس:

- ولقد وجدت السبيل إليه.

أزاح (حسن) أوراق العملية التي أمامه جانبا، وهو يسأله في اهتمام حقيقي: - وكيف هذا؟!

مال (صبري) نحوه، وقال في نشوة عجيبة:

- الحكمة تقول: "التعليم في الصغر، كالنقش على الحجر".

انعقد حاجبا (حسن)، وهو يتراجع أكثر في مقعده، متسائلا في حذر، لم يدرِ له سببا:

- ماذا يعنى هذا بالضبط؟!

اعتدلِ (صبري)، في حركة حماسيةِ حادة، وهو يجيب:

سنبدأ تدريبهم من الصغر.. سنبدأ في إعداد رجل المخابرات المثالي، منذ نعومة أظافره.

حدق (حسن) في وجهه بمنتهى الدهشة، قبل أن يقول:

- أية فكرة تلك؟!

أطلق (صبري) ضحكة قصيرة، وكأنما يفرغ عبرها انفعاله كله، وهو يجيب، بنفس الحماس الجارف: - ليست فكرة مبتكرة كما تتصور، وإنما اقتبستها من المخابرات السوفيتية، فعقب الثورة البلشيفية، واعتقال عدد ضخم من المعارضين، أنشأ القائمون على الثورة ما عرف أيامها باسم مدارس (الكي. جي. بي)، والتي تضم صغار أبناء المعارضين المعتقلين، بغرض إخضاعهم لبرنامج خاص؛ لصنع فكرهم، وإعادة تأهيلهم اجتماعيا، بحيث يصبحون من أشد الموالين للثورة فيما بعد.

غمغم (حسن) مبهوتًا:

- وهذا ما أعطاك الفكرة؟!

ابتسم (صبري)، مجيبا:

المبدأ فحسب يا صديقي.. مبدأ إعداد شخص ما، منذ طفولته، ليكتسب سمات خاصة، على المدى الطويل.. لقد قمت بتطوير الفكرة، وتطويعها لما أنشده.

واستعاد صوته تلك اللمحة الحالمة، وهو يضف:

- تصور طفلاً في الثالثة أو الرابعة، يتم إخضاعه لبرنامج خاص، دقيق ومدروس، وتحت إشراف نفسي وطبي وتقني، بحيث يكتسب عددا من المهارات، التي تؤهله لأن يصبح فذا، عندما يبلغ العشرين، أو الخامسة والعشرين من العمر..

فغر (حسن) فاه، واتسعت عيناه، محاولاً استيعاب الفكرة، التي بدت له لحظتها جنونية، في حين تابع (صبري)، وهو يلوح بكفه في حماس: - هذا يحل مشكلة العمر، فعندما يبلغ ذلك الشخص ريعانه، في أوائل الثلاثينات، ستكون لديه خبرة لأكثر من ربع قرن، في مجالنا هذا.

انعقد حاجبا (حسن)، وهو يقول، في شيء من الصرامة:

- ويكون قد فقد أهم شيء في حياته كلها.

تطلع إليه (صبري) بنظرة متسائلة، فأضاف بمنتهى الحزم: - طفولته.

هز (صبري) رأسه في قوة، وهو يقول، دون أن يفقد حماسه: - مطلقا.. التدريبات التي سيخوضها ذلك الطفل، لن تبدو كعمل، ينبغي أن يقوم به، ولن تفقده طفولته أو براءته، بل ستكون أشبه بألعاب ترفيهية طريفة، ومثيرة لفضول ودهشة الأطفال، وسيتمتع بها كثيرا، ويكتسب منها مهارات لا حصر لها، في الوقت ذاته.. ثم إن هناك مهارات، مثل اللغات مثلاً، يمتلك الأطفال قدرة مدهشة على اكتسابها، وإتقانها، في سنوات طفولتهم الأولى، ومع برنامج رحلات منظم، سيتمكن الطفل من ممارسة كل لغة يتعلمها، بحيث يجيدها بلهجة أهلها، و...

"مهلا.."..

قطع (حسن) سيل حماسته بتلك الكلمة، التي نطقها في صرامة شديدة، فالتفت إليه (صبري) متسائلاً: - أما زلت ترفض الفكرة؟!

أجابه (حسن)، بنفس الصرامة:

- أتتصور أنت أنه هناك من سيقبل بها، أو يوافق عليها.

التقى حاجبا (صبري)، وهو يتساءل في ضيق:

- ولم لا؟!

أجابه (حسن) في اندفاع:

- لأنها فكرة مجنونة.. فكرة تحتاج إلى التضحية بطفل واحد على الأقل لإثابتها، ولن تجد مسئولاً واحدا، يمكن أن يوافقك على هذا.

قال (صبري) في توتر:

- ولكنني سأصنع من ذلك الطفل حالة فريدة، في عالم المخابرات، ولن يكون له مثيل، و...

قاطعه (حسن) بنفس الصرامة والاندفاع:

- ومن ذا الذي سيسلمك ابنه، لتفعل به هذا؟!

بدت تلك القشعريرة، التي سرت في كيان (صبري) واضحة للأعين، وكأنما لم يكن يتوقع هذا، أو لم يضعه في حسبانه، في حين تابع (حسن)، وكأنه يتعمد إفاقة صديقه من حلم مجنون: لا أحد في الوجود سيجازف بهذا، أو سيقبل أن يجعل من ابنه فأر تجارب، حتى لو أغريته بأن تجعل منه حالة فريدة، في أي عالم كان.

صمت (صبري) بضع لحظات، وكأنما يدرس في ذهنه هذا الاحتمال، قبل أن يغمغم في خفوت، وفى لهجة لم تنجح في إقناعه هو شخصيا: - وماذا عن اللقطاء، أو الأطفال مجهولي النسب، أو...

قاطعه (حسن) في صرامة:

- حتى هؤلاء، لديهم جهات ترعاهم، وتتولى شئونهم، ولن توافقك جهة واحدة منها، على تنفيذ هذه الفكرة غير العاقلة.

تراجع (صبري) في صمت، وترك جسده يهوى على أقرب مقعده إليه، وقد بدا له أن حلمه، الذي عاش فيه طويلاً، قد انهار دفعة واحدة..

وبعنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساعة كاملة مضت، منذ بدأت العملية الجراحية، وما زال (حسن) يجهل مصير زميل عمره، الذي أصابته رصاصات الغدر، على قيد أمتار من مبنى السفارة المصرية في (لندن)..

لم يكن لديه أدنى شك، في أنها رصاصات إسرائيلية، سعت للتخلص من أحد العقول المصرية الجبارة، في ذلك الصراع السري، الذي لا يتوقف لحظة واحدة..

أسلوب الاغتيال، والرصاصات الموجهة كلها إلى الظهر، وسرعة اختفاء المغتالين، كلها تؤكد انتماءاتهم وهويتهم..

ولسبب ما، كان يتوقع هذا يوما ما..

صحيح أن (صبري) قد اعتزل العمل رسميا، وتم تعيينهما معا، في السفارة المصرية في (لندن)، إلا أن أجهزة المخابرات الأخرى، كانت واثقة من أن المصريين لن يتخلوا عن عقلية كعقليته أبدا، بعد عقد ونصف من النجاحات المبهرة، والعمليات التي كبدت الخصوم والأعداء خسائرًا فادحة..

كان يسترسل في أفكاره تلك، عندما رأى أحد الأطباء يغادر حجرة عمليات الطوارئ، فسأله في لهفة: - كيف يدور الأمر في الداخل؟!

هز الطبيب رأسه، مغمغما ببروده الإنجليزي الشهير:

الحالة حرجة للغاية.. إحدى الرصاصات اخترقت جدار القلب بالفعل.. إننا نبذل قصارى جهدنا، ولكن..

لم يحاول الطبيب البريطاني إتمام عبارته، إلا أن (حسن) استوعب الأمر كله، وعاد يغلق عينيه بشدة، ويتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) أكثر..

وأكثر.. وأكثر..

ومن أعمق أعماقه، تصاعدت مرارة شديدة..

مرارة صديق، يدرك أن زميل عمره قد يرحل، دون أن يشاهد ثمرة حلمه، الذي عانى من أجله الكثير..

والكثير جدا..

وفي تلك اللحظة بالتحديد، وثب تساؤل خاص إلى ذهنه..

تُرى هل ينبغي أن يتصل بولديه (أدهم) و(أحمد)؟!..

هل؟!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"لقد قررت إجراء التجربة، على مسئوليتي الشخصية.."

نطق (صبري) العبارة بمنتهى الحزم، وهما يسيران معا، في حديقة منزله الجديد، فالتفت إليه (حسن) في دهشة، متسائلا: - هل وافق المسئولون؟!

هز (صبري) رأسه نفيا، وهو يجيب بنفس الحزم:

- كلا.

بدت الدهشة على وجه (حسن)، فاستطرد (صبري):

- ولن يمنعني هذا من إجرائها.

توقف (حسن)، عند ركن الحديقة، وهو يتساءل في حذر:

- كيف ستجريها إذن؟!

ولم يجب (صبري)..

كل ما فعله هو أن استدار إلى حيث يلعب ولديه، (أحمد) و(أدهم)، وتطلع إليهما بنظرة خاصة، جعلت (حسن) يهتف مستنكرا: - هل جننت يا (صبري)؟!.. هل ستجرى التجربة على ولديك؟!

ارتسمت ابتسامة شاحبة، على شفتي (صبري)، وقال دون أن يبعد عينيه عن ولديه: - ليس كليهما.. (أحمد) أهدأ مما ينبغي، وهو يميل إلى العزلة، بحكم كونه الابن الأكبر، أما (أدهم)، فهو موهوب بحق.

قال (حسن) معترضا:

- أنت تتحدث عن طفلين، أحدهما في الرابعة، والآخر في الثالثة عمره.

التفت إليه (صبري)، بنفس ابتسامته الشاحبة، وهو يقول: - وأنت تتحدث إلى محترف.

ولم يقبل (حسن) الفكرة أبدا.

ولم يتراجع عنها (صبري) لحظة واحدة، طوال الأعوام الخمسة عشر التالية..

لقد بدا وكأنه قد كرس حياته كلها لهدف واحد، ألا وهو تنمية مهارات ابنه (أدهم)، حتى يصبح صورة لما حلم به طويلاً..

أما (حسن)، فقد اكتفى بالمراقبة... والمتابعة.. والانبهار..

فالواقع أن فكرة (صبري)، التي بدت في بدايتها مجنونة، قد بدأت تتضح، وتكتسب شيئا من المصداقية، مع مرور الوقت، وظهور نتائجها الواضحة الجلية..

فعندما بلغ (أدهم) السابعة من عمره، كان قد اكتسب مهارات لغوية مدهشة، بثلاث لغات حية، وتضاعفت سرعة استجابته، وقدرته على الانتباه، من خلال ما بدا له مجموعة من الألعاب المسلية، التي عشقها، وغاص فيها حتى النخاع، على عكس شقيقه الأكبر، الذي بدت ميوله علمية، على نحو ملحوظ..

وفى الرحلات الخلوية، أبدى (أدهم) مهارة ملحوظة، في تتبع الأثر، والتخفي، والصيد البري، وهو بعد في العاشرة من عمره..

وعلى الرغم من أن الرياضات المختلفة، كانت ستنفذ الكثير من وقته، أبدى الصبي تفوقا واضحا في دراسته، وفى ألعاب الذكاء ودقة الملاحظة.

وفى الثالثة عشرة من عمره، ومع إتقانه التام لعدد من رياضات الدفاع عن النفس، على نحو يفوق أقرانه، لم يعد أمام (حسن) سوى أن يعترف أن حلم (صبري) قد أصبح حقيقة، وأنه قد نجح في تربية شاب فذ، على كل المستويات.

وعلى الرغم من أن (صبري) قد اعتزل عمله الرئيسي، عندما بلغ (أدهم) السابعة عشرة من العمر، إلا أنه لم يوقف برنامجه لحظة واحدة، ولم يتوقف عن إكساب ابنه مهارات جديدة كل يوم، وكأنما أصابه فهم إلى التفوق، ولم يعد يرتوي منه قط.

أما (أدهم) الشاب، فقد أكسبته كل تلك المهارات، بالإضافة إلى مواهبه الفطرية، ثقة ما بعدها ثقة، لم تبلغ قط حد الغرور، وإنما جعلته قادرا على تحدي المستحيل، ومواجهة أعتى المخاطر، دون أن يطرف له جفن أو تهتز في جسده شعرة..

وفى الوقت الذي اختار فيه شقيقه الأكبر (أحمد) كلية الطب، لإكمال دراسته الجامعية، قرر (أدهم) في وضوح أن هدفه هو الالتحاق بالكلية الحربية..

ربما تشبها بوالده، أو لأنه أدرك أن هذا ما يحتاج إليه حقا، لصقل مواهبه وخبراته، ومهاراته المختلفة..

ولاكتساب مهارات جديدة، يتعذر أن يكتسبها غير العسكريين..

وبات من الواضح أن حلم (صبري) قد اكتمل، أو كاد..

وأن (أدهم صبري) قد مستقبله..

بمنتهى الوضوح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خفق قلب (حسن) بمنتهى العنف، عندما رأى فريق الأطباء يغادر حجرة عمليات الطوارئ..

كان المستشفى قد اكتظ برجال السفارة المصرية، ورجال الشرطة البريطانية، وأصدقاء (صبري) من كل مكان، عندما هز رئيس الأطباء رأسه في أسى، وقال: - الإصابات كانت أقوى من قدراتنا.

وتفجرت الدموع في العيون، وراح البعض ينتحب، في حين بقي البعض الآخر صامتًا، وقد سيطر عليهم ذهول تام، غير مصدقين أنها نهاية ذلك الرجل، الذي يندر أن يجود الزمان بمثله..

وفى رصانة آلية، قال رئيس فريق الأطباء، موجها حديثه إلى (حسن) الذي أتى مع المصاب: - سنعد كل الأوراق المطلوبة، لسرعة استخراج وثيقة الوفاة، ودفنه على نحو لائق، و...

قاطعه (حسن) بمنتهى الحزم:

- كلا.

تطلع إليه البريطاني في دهشة، فتابع في حزم، ضاعفه انفعاله الجارف وحزنه العميق: - لست أظنه كان يرغب أن يدفن، إلا في تراب (مصر).

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقال بعدها..

وعلى الرغم من أن التحقيقات ستستغرق حتما وقت طويل، نجحت الجهود الدبلوماسية في إنهاء الإجراءات في سرعة، ليسافر جثمان الشهيد إلى وطنه الأم... (مصر)..

وهناك، في مقبرة الأسرة، وعلى الرغم من جلال الموقف، تعلقت عينا (حسن) بولدي الفقيد (أحمد) و(أدهم)..

كان (أحمد) شديد التأثر، عاجز عن كبح دموعه، التي انهمرت في غزارة، من خلف منظاره الطبي، لتغرق وجهه كله..

أما (أدهم)، فلم يذرف دمعة واحدة..

كان كما أراده والده تماما.. صورة مجسمة للقوة، والبأس، والحزم والصلابة..

(حسن) يدرك جيدا مدى تعلقه الشديد بوالده، ومقدار الحزن الهائل، الذي يثقل كل ذرة من كيانه، وينهش خلاياه وعروقه وأعصابه، ويعلم كم يبذل من جهد وإرادة، ليبدو متماسكا قويا، في تلك اللحظات العصيبة المؤلمة..

وعند عودتهم، ظل (أدهم) صامتًا، جامد العينين، لا تشف ملامحه قط عما يدور في أعماقه، كما اعتاد وتدرب دوما.

وكوسيلة لجذبه إلى مضمار الحديث، مال عليه (حسن)، قائلا: - ليس من العار أن تبكي والدك.

التفت إليه (أدهم) في بطء، وقال في حزم، ذكره كثيرا بوالده: - لم يحن وقت البكاء عليه بعد.

ثم عاد يعتدل، مضيفا:

- سأبكيه عندما يدفعون الثمن.

ولم يتبادل (حسن) معه كلمة إضافية، بعد عبارته هذه، إلا أنه أدرك تماما ما يعنيه كل حرف منها.

إلا أنه لم يدرك، لحظتها، ولم يكن بإمكانه أبدا أن يتصور، كما سيجعلهم (أدهم صبري) يدفعون الثمن، ولا كيف سيتحول، بعد عقد واحد من الزمان، إلى ما يفوق حتى ما حلم به (صبري)، في أجمل تصوراته وتمنياته..

بل ولم يدرك (حسن) لحظتها، أن يشهد البداية الحقيقية لرجل مخابرات، لم يعرف التاريخ له مثيلاً، حتى في روايات الحركة والخيال..

رجل، سيحمل إلى الأبد لقبا فريدا، يتميز به بين أقرانه، في عالمه الخاص..

لقب رجل المستحيل!..

كل المستحيل!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنـــــاة – Link

الفهرس..

عن الكتاب..

مقدمة

الفصل الأول
ميلاد حلم بعيد
الفصل الثاني
النبوءة.. حلم رجل المستحيل
الفصل الثالث
عالم المخابرات الحقيقي من الألف إلى الياء
الفصل الرابع
الحريق.. ميلاد جديد
الفصل الخامس
القصور الذاتي.. درس في الحياة
الفصل السادس
إرادة الله.. واتصال هاتفي من المخابرات
الفصل السابع
قانون الكتابة عن عالم المخابرات
الفصل الثامن
جمعية حقوق المؤلف، بداية جديدة